الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

العظمى

جامعة الفاتح ـ كلية الآداب

الدراسات العليا

قسم اللغة العربية

تجليات الحداثة في القصيدة العباسية حتى نهاية القرن الخامس الهجري

(دراسة وصفية فنية)

رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الإجازة العالية

(الماجستير)

في اللغة العربية

إعداد الطالب/ سالم مُرجان الدَبُّوس العبد

إشراف الدكتور/عبد السَّلام الهمَّالي سُعُود

العام الجامعي 2007–2008 ف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

" رَبِّ أوْزِعنـي أن أشـكر نعمتـك التـي أنعمـت علـي وعلـى والـدي وأن أعمـل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين "

صدق الله العظيم

سورة النمل الآية (19)

الإهداء

إلى والدي العزيزين ....

أهـدي عملي هذا ....

اعـترافاً بفضلهما ....

شكر وعرفان

أشكر الله العلي القدير بارئاً إليه سبحانه من كل حول وقوة ، شاكراً لـه شكر مقصِّر لا يفي بأنعمه عندي .

كما أتقدم بوافر الشكر والثـناء إلى أستاذي الجليل المشرف علـى هذا البحث ؛ الدكتور : **عبد السَّلام الهمَّالي سُعُود** ، صاحب القلب الكبير والصدر الرحب الذي توج اسمه وخلقه وعلمه بحثي هذا فزاده إثراءً وزادني تشريفاً ، فكان خير قدوة وسند .

جزاه الله عني ، وعن جهوده المتواصلة في سبيل العلم وطلابه خير ما يُجزى به العلماء الصادقون ، والله أرجو أن يبقيه ذخراً للعلم وأهله ، وأن يديم عليه التوفيق والرشاد .

كما أتوجه بجزيل الامتنان إلى عضوَي لجنة المناقشة الموقرة وأنا على يقين بأنني سأفيد كثيراً من دقيق ملاحظاتهما ، هذه اللجنة المكونة من :

الدكتور: عبد الله محمد الزيات ، الذي تشرفت سابقاً بأن كنت أحد تلاميذه بمرحلة دبلوم الدراسات العليا ، وازددت اليوم شرفاً بكونه أحد مناقشي هذا البحث .

والدكتور : مصطفى محمد أبو شعالة ، الذي وإن لم أعرفه في شخصه فقد عرفته في روحه التي كانت مبثوثة في زملائي من تلاميذه .

وأتقدم بشكري وامتناني لأفراد أسرتي ، من والدَين عطوفَين كانت رعايتهما ومساندتهما سبباً في وصولي إلى هذا المنبر العلمي ، فأمد الله في عمرهما ، ورفع درجاتهما في جنات النعيم .

ومن أخوة أعزاء طالما حثّوا على إنجاز هذا العمل وانتظروا اكتماله .

ولا يفوتني في هذا المقام أن أتوجه بخالص شكي إلى ابن الخال جلال براني الدامي ، وابن الخالة الأستاذ عبد الرحيم سليمان حفالش ، اللذين كانا خير سند وعون على أعباء الغربة والدراسة .

والشكر موصول لكل الرفاق والأصدقاء ، وفقهم الله جميعاً .

المقدمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على النبي الأمين ، وعلى آله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين وبعد .

فالشعر في تاريخ كل أمة خاضع لتطور حياتها في النواحي المختلفة ، سياسية ، وثقافية ، واقتصادية . فهذه الجوانب هي التي تحدد مجراه وأساليبه واتجاهاته ، إذ إن التغير في هذه النواحي يصاحبه تغير وتبدل في الشعر من طور إلى طور آخر ، فتتبدل موضوعاته وصوره ، وتبرز فيه معان جديدة لم تكن موجودة .

والأمة العربية كغيرها من الأمم ذات نتاج أدبي زاخر وأكثر ما اتضح هذا النتاج في الشعر ، وقد مرت القصيدة العربية منذ استوائها بفترات وعصور متفاوتة ، سمي كل عصر من هذه العصور بحسب الوضع السياسي الذي كان سائداً في حينه .

فأشهر عصور الأدب العربي العصر الجاهلي ، أو عصر ما قبل البعثة الذي عرف للقصيدة العربية فيه نظام موحد سُمي فيما بعد بعمود الشعر العربي الذي سار على نهجه غالبية الشعراء دون تغيير يذكر .

ثم يأتي العصر الإسلامي الذي كان أغلب أعلام الشعر فيه من المخضرمين ، فلم يطرأ أي تغيير على النظام التقليدي للقصيدة ، ماعدا سريان روح الإسلام في قصائد بعض الشعراء ، والتخلي عن عصبيات الجاهلية .

ويليه بعد ذلك عصر دولة بني أمية الذي لم تطل مدته مقارنة ببقية عصور الأدب العربي ، وهذا العصر كذلك انطبعت فيه القصيدة العربية بالطابع الجاهلي خاصة من النواحي الفنية ، وأبرز مظاهر التجديد فيه تمثلت في نشأة الشعر السياسي والمذهبي ، وتطور قصيدة الهجاء الجاهلية إلى نوع آخر من الهجاء تمثل في فن النقائض الذي كان رائداه في ذلك العصر شاعرين كبيرين هما جرير والفرزدق.

وبعد تولى بني العباس أمر خلافة الدولة الإسلامية ، شهدت الحياة العربية تطورات وتغيرات كثيرة أثَّرت على كل مناحيها السياسية والاجتماعية والاقتصاية والفكرية ؛ نتيجة لاختلاط العرب بغيرهم من الأجناس الأخرى وحدوث معاملات

ومصاهرات نتج عنها تأثر العرب بطباع هذه الأجناس ، مما أحدث تغييراً على كافة أوجه الحياة العامة ، كان لها بالغ الأثر على الجانب الأدبي في هذا العصر ، حيث طرأت على الشعر العباسي ألوان من الحداثة والتجديد ؛ فتحولت القصيدة العربية عن إطارها القديم إلى إطار آخر أكثر مواكبة لروح العصر .

والعصر العباسي من أرقى العصور الأدبية التي شهدتها الأمة العربية عبر تاريخها ، بل هو العصر الذهبي لازدهار الأدب العربي ، حيث بلغت فيه القصيدة الشعرية قمة النضج الفني في مختلف أغراضها وفنونها ، وقد تم كل هذا التطور والتجدد على أيدي شعراء أفذاذ ؛ حملوا لواء التجديد على عاتقهم كما تصدوا لدعاة المحافظة من الشعراء النقاد ، وقد دارت بين هؤلاء النقاد والشعراء مساجلات نقدية لم تكن إلا مناخاً ملائماً للتجديد أعطى فيه كل شاعر على قدر ما استطاعت موهبته وثقافته .

من هنا جاءت هذه الدراسة لترصد أبرز أشكال التجديد التي طرات على القصيدة الشعرية في العصر العباسي ، وتعرّف بأهم أسبابها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، كما ستعرّف بالتيارات الفكرية الأجنبية التي ساعدت على حدوث هذا التجديد ولو بشكل موجز .

وقد جاءت هذه الدراسة استكمالاً لدراسات سابقة لبعض الدارسين العرب المعاصرين ؛ مثل دراسة رجاء الجوهري التي كان عنوانها (فن الرجز في العصر العباسي) ، فقد استقصت في دراستها هذه مسألة اتساع دائرة فن الرجز ليستوعب كل الأغراض التي تناولها القصيد ، ولم يهتم بها الرجاز القدماء ، كما تطرقت إلى ما صاحب هذا التوسع من ملامح التجديد والتطور في فن الرجز ، فجاءت دراستي هذه استكمالاً لتلك ولكن في إطار القصيد بالدرجة الأولى .

ودراسة أخرى هي دراسة نبيل خليل أبو حلتم الموسومة بـ (اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري من خلال كتاب يتيمة الدهر للثعالبي) فقد تجاوز بها صاحبها القرن الثالث الهجري ، عصر أعلام الشعر

العباسي من المجددين ، كما أنه اقتصر فيها على دراسة الشعر الذي ورد ذكر أصحابه في كتاب اليتيمة فقط .

وكذلك دراسة عبد الرحمن عطبة التي عنوانها (تطور الشعر العربي في بلاد الشام في القرن الثاني الهجري) فقد ضيق صاحبها في مجالها من جهتين ، من جهة أنه حصرها زمنياً بالقرن الثاني الهجري ؛ ومن جهة أخرى أنه اقتصر بها على إقليم بعينه هو إقليم الشام ، فاستثنى منها إقليم العراق وشعراءه الذين كان أثرهم بارزاً في عملية التجديد في الشعر العباسي .

فجاءت هذه الدراسة بعنوان (تجليات الحداثة في القصيدة العباسية حتى نهاية القرن الخامس الهجري) ؛ لتغطي قضايا التجديد في الشعر العباسي في أطول مدة ممكنة من هذا العصر ؛ حيث انطلقت زمنياً من قيام الدولة العباسية أي من سنة 132هـ إلى نهاية القرن الخامس الهجري ، وقد كان سبب تحديد مدة نهايتها بذا التاريخ أن الشعر العربي أخذ يقل بريقه في هذه الفترة ؛ فمنذ منتصف القرن الخامس الهجري أي بعد وفاة أبي العلاء المعري غابت عنه روح الأصالة والتجديد الفني ، إذ اتجه الشعراء فيه إلى التقليد واحتراف الصنعة والزخرف اللفظي والبديعي والعروضي ، الأمر الذي أذهب ما للشعر من سحر وجمال ، طالما تمتع بهما على أيدي أبي تمام والبحتري والمتنبي وأبي العلاء المعري ، وقد انتشرت في تضاعيف هذه الدراسة أشعار كثيرة لهؤلاء الشعراء وآخرين غيرهم مثل : عوف بن محلم الخزاعي ، وعلي بن جبلة ، ودعبل بن علي ، وأبي الفتح البستي ، وقد تم التعامل مع الشواهد الشعرية التي وظفت في هذه الدراسة بشكل عفوي دون تعمد أو انتقاء مقصود ؛ ليتمكن الدارس من الاتيان بشواهد لأكثر من شاعر على طول فترات هذا العصر .

وقد استدعت طبيعة هذه الدراسة أن يأتي هيكلها على النحو التالي : مقدمة ، وأربعة فصول ، وخاتمة ، وثبت بالمصادر والمراجع .

جاء الفصل الأول تحت عنوان دراسات موطئة تعرض الباحث فيه للبيئة والمؤثرات ، حيث خصص المبحث الأول منه لعرض الحياة السياسية في هذا العصر ، والمبحث الثاني ألقى الضوء على الحياة الاجتماعية ، أما المبحث الثالث فقد تصدى لدراسة الحياة العقلية ، وقد كان الداعي لتناول هذه الجوانب علاقتها الوطيدة بموضوع الدراسة ؛ لأن ما أصاب القصيدة من تطور في هذا العصر ؛ لم يكن إلا نتيجة عملت هذه الجوانب مجتمعة على تحقيقها ، فقد دخلت المجتمع العربي في هذا العصر عادات وتقاليد غريبة وشاذة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وفكرياً ؛ نتج عنها تقاليد مستحدثة في أنماط الشعر ومعاييره .

أما الفصل الثاني فقد تعرضت فيه لبعض القضايا التي شغلت بها الساحة الأدبية في العصر العباسي ، مثل قضية الصراع بين القديم والمحدث ، هذه القضية التي لو لم يكن هناك تجديد وتطور في شعر هذا العصر لما أثيرت ولا كثر تناول العلماء والنقاد لها بين مؤيد ومعارض .

وفي المبحث الثاني اختار الباحث قضية الثورة على الموروث في الشعر العباسي ، وجاءت الثورة على المقدمة الطللية نموذجاً .

وقد درست في المبحث الثالث مسألة الشعر المذهبي والعقدي والديني الذي اتسع بابه في هذا العصر .

كما تتبع الباحث في الفصل الثالث ملامح التحديث والتجديد في القصيدة العباسية سواء في الأغراض ، أم في الشكل أي من حيث الأسلوب والأوزان والصور .

وفي الفصل الرابع ألقيت الضوء على هيكل القصيدة العباسية وعناصر بنائها وما احتفظ بشكله التقليدي منها أو ما أصابه بعض التغيير .

وقد اعتمدت هذه الدراسة على العديد من المصادر والمراجع التي كان من بينها : كتاب الأغاني الذي يعد من أغنى المصادر لمن أراد دراسة الأدب في هذه الفترة ، كما كان من هذه المصادر أيضاً كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة

، وكتاب طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز ، وكتابا العمدة والوساطة ، يضاف إلى هذه المصادر مجموعة من دواوين شعراء هذا العصر كأبي نواس وأبي تمام وابن الرومي وأبي العتاهية ، كما أن الدراسة أفادت من كثير من المراجع الحديثة التي تعرضت لدراسة الأدب وتاريخه في العصر العباسي ، مثل كتابي شوقي ضيف العصر العباسي الأول ، والعصر العباسي الثاني ، وحديث الأربعاء لطه حسين الجزء الثاني منه ، ومجموعة من كتب تاريخ الأدب العربي مثل كتاب نجيب البهبيتي .

وقد اكتفيت في هوامش هذه الرسالة بذكر اسماء المصادر والمراجع فقط دون توثيق معلوماتها كاملة ، حيث أرجأت ذلك إلى ثبت المصادر والمراجع الذي ألحق بالدراسة .

وقد اعتمدت الدراسة على المنهج المتكامل ؛ حيث اتضح المنهج التاريخي في تناول الفترة الزمنية الممتدة من نهاية الثلث الأول من القرن الثاني الهجري ؛ إلى نهاية القرن الخامس الهجري ، وجاء المنهج الوصفي واصفاً الحياة العباسية من مختلف نواحيها السياسية ، والاجتماعية ، والفكرية متناولاً أثرها على الجانب الأدبي في هذا العصر ، وكذلك المنهج التحليلي الذي جاء محللاً لما طرأ على القصيدة الشعرية من حداثة وتجديد ، وقد وظف الباحث هذه المناهج في دراسته حسبما اقتضت الحاجة إلى كل منها في كل موضع .

وقد واجهت الباحث أثناء قيامه بهذه الدراسة بعض الصعوبات التي كان منها ندرة المصادر والمراجع المتعلقة بالدراسة سواء في مكتبة الجامعة أم في المكتبات العامة ، وكذلك محل إقامة الباحث الذي كان بعيدا عن أستاذه المشرف الأمر الذي صعّب من الاتصال المباشر به في أغلب فترات الدراسة .

وختاماً آمل أن تكون هذه الدراسة قد حققت بعض ما كنت أصبو إلي تحقيقه ، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

الفصل الأول : البيئة والمؤثرات

- **المبحث الأول : الحياة السياسية**
- **المبحث الثاني :الحياة الاجتماعية**
- **المبحث الثالث : الحياة العقلية**

المبحث الأول: الحياة السياسية.

قامت الدولة العباسية سنة 132هـ ، وظلت تحمل هذا الاسم إلى سنة 656هـ ؛ حيث أغار التتار على بغداد . ونجد المؤرخين ممن كتبوا في تاريخ هذه الفترة سواء الأدبي أم السياسي ، يصطلحون على عدة تقسيمات لهذا التاريخ باعتبار

الضعف والقوة ، والانحطاط والرقي على المستوى الثقافي ، والحضاري والسياسي ، والاجتماعي فإن منهم من جعله فترتين (الأولى من سنة132هـ إلى سنة 324هـ ، والثانية من سنة 324هـ إلى سنة 656هـ)[1] ، ومن هؤلاء المؤرخين من جعله أربع فترات : الأولى من قيام الدولة العباسية سنة 132هـ إلى عهد المتوكل سنة 232هـ ، والثانية من سنة 232هـ إلى دخول بني بويه بغداد سنة 334هـ ، والثالثة تبتدئ بدخول بني بويه بغداد وتنتهي بانتزاع السلاجقة الحكم من أيديهم سنة 447هـ ، والرابعة تبتدئ باستيلاء السلاجقة على بغداد ، وتنتهي بسقوط بغداد في يد المغول سنة 656هـ.[2] ومن الدارسين أيضاً من يجعل تاريخ الدولة العباسية ذا مراحل ثلاث ، (الأولى من قيام الدولة إلى استيلاء بني بويه على بغداد ، وهي قرنان من الزمان، والثانية من استيلاء بني بويه على بغداد إلى انتزاع السلاجقة للحكم من أيديهم ، والثالثة من استيلاء السلاجقة على بغداد إلى دخول المغول)[3].

وعلى كل حال فإن هذه التقسيمات اعتبارية وليست حقيقية ، تكون في الأغلب خاضعة لنظام الحكم ، أو للأوضاع الاجتماعية ، والثقافية السائدة في فترة من الفترات.

ونرى الدكتور عزالدين إسماعيل يرفض هذه التقسيمات ، ويرى أن مبرراتها التي قد ترتبط بأحداث تاريخية ، أو بتغيرات في بعض مظاهر الحكم لم تعد مقنعة ؛ فهذه الأحداث قد تتداخل وتستغرق زمناً قد يتعدى حدود العصر الواحد في تكوين ظاهرة ما ، كما أن هذه الأحداث قد تختفي حيناً وتظهر حيناً آخر فهو يقول : (إن كل الصراعات التي تمثلت في إطار الدولة العباسية منذ بدايتها قد ظلت مستمرة حتى نهايتها ، تخفّ وطأة بعضها حيناً وتشتد حيناً أو ترجح كفة أحد الطرفين المتصارعين كفة الطرف الآخر مرة ، ثم تعود لترجحها الكفة الأخرى ،

[1] ـ تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني . ص: 141.
[2] ـ المصدر السابق . ص: 143.
[3] ـ نفسه. ص: 146.

لكن عنصر الاستمرار يظل هو السمة العامة للعصر كله)[1] فالدكتور إسماعيل ممن يرفضون هذه التقسيمات خاصة من الجانب الأدبي ، فهو يرى أن الظاهرة الأدبية لا تنتهي بانتهاء فترة سياسية وابتداء أخرى ، بل إن ذلك يستغرق بعض الوقت .

ولم يكن تولي العباسيين للحكم أمراً وليد المصادفة ؛ بل سبق قيام هذه الدولة أحداث وترتيبات لابد من التوقف عندها ، لما كان لها من أثر بالغ على كافة أوجه الحياة في هذه الفترة .

كانت مقاليد الحكم قبل قيام الدولة العباسية في أيدي بني أمية ، الذين تباينت آراء الدارسين حول الأسباب التي أدت إلى انهيار دولتهم وسقوطها سنة132 هـ ، فبعض هذه الأسباب يتجه إلى تحلل الأسرة المروانية من داخلها ووقوع الصراع على السلطة بين أفرادها ، ذلك الصراع الذي كان مرده إلى السياسة الخاطئة التي اتبعها الأمويون في توليتهم العهد لاثنين يلي أحدهما الآخر، وبعضها يرجع إلى ما يقال عن انشغال بني أمية بلذاتهم عن تفقد أمور الدولة ، وإلى ظلمهم الرعية ، وبعضها يرجع إلى الصراع القبلي بين النزارية واليمنية[2]، وكذلك من هذه الأسباب فساد النظام المالي للدولة الأموية ، وظهور الطبقية بشكل حاد بين أفراد المجتمع . وإن صدق القول بأن هذه الأسباب مجتمعة أو بعضها أدّى إلى سقوط دولة بني أمية ، فإن هناك ما هو أخطر منها ألا وهو قيام الثورات التي توالت على الدولة ، وكانت هذه الثورات من الخوارج تارة ، ومن الشيعة تارة ، ومن الموالي تارة أخرى ، وكان السبب وراء قيام أغلب هذه الثورات (أنه كان هنالك من يدين بأن المهمة التي كانت ملقاة على عاتق النبي - ﷺ - في حياته مما يتعلق بإصلاح حال المسلمين في معاشهم ومعادهم ، إنما يرثه عنه أهله وقرابته)[3].

[1] - في الأدب العباسي الرؤية والفن ، ص7 - 8 من المقدمة .
[2] - العصر العباسي الثاني ، ص: 18.
[3] - المصدر السابق ، ص: 18.

وقد كانت بدايات ذلك بالصراع على الخلافة بين الهاشميين بقيادة علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وبين بني أمية بزعامة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، والتحكيم الذي أعقب معركة صفين ، اتسعت بعد ذلك الخلافات وتوزعت قوى الإسلام والمسلمين طوائف ، وجماعات، وأحزاباً.

فبعد استحواذ بني أمية على الحكم اتبعوا نظاماً سياسياً واجتماعياً كان له مردود سلبي على إمارتهم ؛ تمثل في اضطهادهم الموالي وحرمانهم من أبسط الحقوق وهو مساواتهم بالعرب ، بل نظروا إليهم نظرة ازدراء وتحقير ، مما أثار حفيظة هؤلاء الموالي وأجج غيظهم وسخطهم ، وجعلهم يتطلعون إلى يوم الخلاص من هؤلاء الظلمة القساة في معاملتهم ، وبدت هذه المعاملة السيئة في أنهم (ما كانوا يسمحون بالزواج من الفرس ، أو الروم أو الترك ، وكانوا يرون أنهم عبيد وخدمة فقط ، لدرجة أنه إن التقى أحدهم بنبطي وكان يحمل شيئاً دفع إليه ذلك الشيء دون أن يجد في ذلك غضاضة أو امتعاضاً ... وقد روى كتاب الأغاني أن رجلاً من الموالي خطب ابنة رجل من أعراب بني سليم ثم تزوجها ؛ فانتهى ذلك إلى والي المدينة ففرق بينه وبينها وجلده مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبه ...) [1] ، وكان العرب كذلك يأنفون من العمل في المهن والحرف الوضيعة ، وقد ازدادت أنفتهم بعد تلك الانتصارات والفتوحات ، فتركوا هذه الأعمال للموالي الذين اشتغلوا بكل الحرف اليدوية من زراعة وصناعة ، ولكنهم كانوا كذلك يقومون بأعمال راقية مثل الأعمال الكتابية وأعمال الجباية ، وفي الوقت نفسه لم يكن الموالي مبعدين عن الجيوش ؛ فقد كانت كل قبيلة إذا خرجت إلى الحرب خرج معها مواليها ، ويلاحظ من أنواع التمييز في مثل هذه الحالة أن الموالي لا يركبون الخيل بل يذهبون راجلين بخلاف فرسان العرب ، كما أنهم لا يُلحقون شأن الفرسان العرب بديوان العطاء ، بل لم يكونوا يعطون من الغنائم إلا الشيء القليل ، وفي الوقت ذاته لم يكن هؤلاء يُعفون من دفع الجزية حتى بعد إسلامهم ، حتى بلغ أمر هذا

[1] ـ نفسه ، ص : 22 .

التمييـز أن العربـي لا يخاطـب المـولى بكنيتـه ، لأن الكنيـة دليـل الاحتـرام والتبجيل ، بل يدعوه باسمه أو بلقبه [1] .

فما تعرضت له هذه الفئات من ظلم تحت راية بني أمية ؛ كان كافياً لدفع أعداد كثيرة منهم للانضواء تحت لواء الحركات المعارضة من شيعة وخوارج ، هذه الحركات التي كان دافعها الرئيس إلى الثورة ، هو عدم التسليم بشرعية حكم بني أمية ، فعدم التسليم بشرعية حكم بني أمية هو الذي يفسر لنا كل هذه الانتفاضات والثورات التي صاحبت فترة حكم الأمويين .

وربما كان من أقسى هذه الانتفاضات على الدولة الأموية انتفاضات الخوارج ، الذين أرهقوا الخلافة الأموية إرهاقاً شديداً ، وكانوا (لا يستيئسون أبداً ، وكان قد استقر في نفوسهم أن الأمويين نهبوا السلطان من الأمة وينبغي أن يعود إليها ، بحيث تتحقق المساواة بين أفرادها ، ويعم العدل الذي لا تستقيم حياة الناس بدونه) [2] .

وإلى جانب من انضوى تحت لواء الخوارج من هؤلاء الموالي كانت هناك كثرة مالت إلى التشيع ، فقد علقت هذه الفئات المقهورة المضطهدة آمالها على أبناء الأسرة العلوية ، وعند غياب من يقود هذه الجموع من أبناء الأسرة العلوية ، استغل ذلك أبناء عمومتهم بنو عباس ، الذين استندوا إلى (أن أبا هاشم بن محمد بن الحنفية أوصى بالإمامة من بعده إلى علي بن عبدالله بن العباس ، وأن علياً أوصى إلى ابنه محمد ، وأن محمداً أوصى إلى ابنه إبراهيم الإمام ، وأن إبراهيم الإمام - وهو عباسي - أوصى إلى أخيه أبي العباس ؛ الذي عُرف فيما بعد باسم السفاح ، وهو أول خليفة عباسي ، ومن هنا اكتسب العباسيون ولاء الطائفة الشيعية التي كانت تدين بإمامة محمد ابن الحنفية ، وهي طائفة الكيسانية) [3] .

---

[1] ـ انظر في الأدب العباسي الرؤية والفن ، ص : 72 .
[2] ـ العصر العباسي الأول ، ص : 9 .
[3] ـ اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص : 44.

احتفظ العباسيون بسرية تنظيم دعوتهم ، واتخذوا لذلك دعاة من التجار وغيرهم ، وكانوا أخلاطاً من عرب وموال ، وانتشر هؤلاء الدعاة في مختلف الولايات الإسلامية في الشرق والغرب ، وكانوا يثيرون الناس ضد بني أمية ، ويقولون بأنهم ليسوا أصحاب عدل ومساواة . وكان هيكل التنظيم السري الذي سارت عليه هذه الدعوة يتكون على النحو التالي (كان محمد بن علي رأس التنظيم ، يليه ميسرة مولى علي بن عبد الله مقيماً على الدعوة في الكوفة ، ومحمد بن خُنيس ، وأبو عكرمة السراج على خراسان ، ويلي هؤلاء اثنا عشر نقيباً يختص كل منهم بعدد من الدعاة ، ثم نظراء النقباء وعددهم عشرون ، وقيل إنهم واحد وعشرون ، ولكن يبدو أنهم كانوا اثني عشر يحل الواحد منهم محل النقيب إذا توفي ، ويلي هؤلاء جميعاً سبعون من الدعاة ، وكان بعض نظراء النقباء منهم) [1] .

وكانت إمارة الدولة الأموية في هذه الأثناء بين يدي الوليد بن يزيد ؛ الذي عُرف عنه إدمان الخمر ، ومنادمة المجان ، وأتبع ذلك بأن دب الخلاف بين أبناء البيت الأموي ؛ هذا الخلاف الذي انتهى بمقتل الوليد بن يزيد سنة 126هـ ، وأتبع ذلك بثورات الخوارج في الحجاز واليمن والموصل[2] . بمعنى أنه في الوقت الذي أخذت فيه أحوال الدولة الأموية بالتضعضع والتهاوي ، كانت الترتيبات لقيام الدولة العباسية تسير على أكمل وجه .

أما أهم المبادئ التي أدت إلى نجاح الدعوة العباسية في حشد جموع موالية فهي أنها أعلنت إنكار الظلم ، وتحت هذا المبدأ أرضت كل الشيعة العلوية ؛ الذين رأوا في بني أمية مغتصبين لحقهم ، كما أرضت بعض قبائل العرب التي عانت تفضيل قبائل أخرى عليها ، وأرضت كذلك طبقات المجتمع الكادحة التي عانت العوز والحرمان ، يضاف إلى هذا ما التزمته هذه الدعوة من السرية التامة في نشر مبادئها ، حيث استمر عمل الهيكل التنظيمي السري لهذه الدعوة مدة ثلاثين عاماً ، كما أن العباسيين لم يوضحوا أنهم طلاب ملك

[1] ـ في الأدب العباسي الرؤية والفن، ص: 20.
[2] ـ انظر العصر العباسي الأول ، ص:11.

وخلافة وإنما كان هدفهم - كما يزعمون - هو تخليص الناس من جور بني أمية ، كما أنهم لم يجدوا بأساً من التطرف في القسوة مع كل من يساورهم الشك فيه ، ومن ثم امتزجت في نفوس الناس منذ ذلك الوقت الرغبة فيهم بالرهبة منهم ، وقد اختاروا لنشر دعوتهم منطقة تتوافر فيها شروط لا تتوافر في غيرها وهي إقليم خراسان ، الذي كان بعيداً عن قلب الخلافة الأموية ، وكان سكانها أخلاط من العرب المهاجرين ، والجند المقاتلين ، والسكان الأصليين ؛ وكل هؤلاء اجتمعوا على مناهضة الحكم الأموي [1] .

وعلى إثر قيام الدولة العباسية التي كان للموالي دور فعال في إقامتها بعد أن أحسوا بكيانهم إذا هم تجمعوا في وجه العرب ؛ حدث تغير كبير في ميزان القوى السياسية ، فالموالي لم يكونوا كماً مهملاً في الحياة السياسية حيث كوَّنوا حزباً قوياً من الممكن أن نطلق عليه اسم حزب الموالي ، قام إلى جوار الحزب العلوي والعباسي وغيرهما من الأحزاب في ذلك الوقت ، وكان من آثار هذا الحزب فيما بعد ظهور حركة الشعوبية التي يتفاخر أصحابها بأصلهم العجمي وحضارتهم ، ويحتقرون العرب وما كان في حياتهم القديمة من بداوة وسذاجة [2] . وبعد أن أخذت دولة بني العباس تترسخ وتقدم بها الزمن قليلاً ؛ أصيب الكثير من الموالي بخيبة أمل واستياء تجاه سياسة العباسيين ، وبخاصة بعد أن استُدْرج أبو مسلم الخراساني وقتل ، ولعل خير من يصف لنا هذا الاستياء شاعرهم أبو العطاء السندي الذي يقول [3] :

يَا لَيْتَ جَوْرَ بَنِي مَرْوَانَ عَادَ لَنَا يَا لَيْتَ عَدْلَ بَنِي العَبّاسِ في النّارِ

وفي هذه الأثناء عاد الموالي لمزاولة نشاطهم القديم أي اللجوء إلى التمرد والثورة ، وكان الدافع الأول وراء هذه الثورات أن الناس خُدعوا بدعوة بني العباس ، حيث وجدوا منهم قسوة وغلظة أشد مما كان عليه بنو أمية وكان أول

---

[1] ـ انظر في الأدب العباسي الرؤية والفن ، ص: 38.

[2] ـ اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص : 47.

[3] ـ هذا البيت لأبي العطاء السندي المتوفى سنة: 180، وهو أفلح بن يسار السندي أبو عطاء ، وهو شاعر فحل قوي البديهة ، كان عبداً أسود من موالي بني أسد ، مخضرم بين دولتي بني أمية وبني العباس ، وقد تشيع للأموية وهجا بني هاشم. الأعلام ، جـ: 2، ص: 5.

من ثار في عهد العباسيين(شُريك) [1] ، الذي أوضح سبب ثورته في جملته التي قال فيها : (ما على هذا اتبعنا آل محمد : على أن نسفك الدماء ونعمل بغير الحق)[2].

على هذا النحو استمرت فترة حكم بني العباس ، لا تكاد تخلو فترة حكم أمير أو خليفة من حدوث بعض الانتفاضات ، ومن ناحية أخرى يلاحظ تأرجح خلفاء بني العباس بين تفضيل بعضهم للعنصر الفارسي وتقريبه إلى كرسي الحكم وإشراكه في صنع القرار ، وبين تفضيل بعضهم الآخر للعنصر التركي وإعلاء كعبه ، وكان العرب خلال ذلك وفي غالبية الوقت مبعدين أو مهمشين لا يُرى لهم دور ، ولعل السبب وراء قيام العباسيين بذلك هو محاولة انتزاع ما استقر في نفوسهم من احتقار العرب لهم ، هذا الاحتقار الذي عانى منه الموالي مدة حكم بني أمية ، أو لعل الباعث إلى قيامهم بذلك من باب الاعتراف بفضل الموالي ، ودورهم في دعم الثورة العباسية (وقد رأى العباسيون ترضية لنفوس الفرس - ولو إلى حد ما - أن يظهروا لهم من التودد ، وحسن المعاملة ، وعظيم الثقة ما عساه أن يستل السخائم وينزع الأحقاد ، وأن يخلصوا للدولة بعض الإخلاص ، وأن يقفوا إلى جانبها بعض الوقوف)[3].

إلا أن ما كان من الموالي أثبت سوء نيتهم ، حيث استغلوا ما وصلوا إليه من مناصب في الدولة - كمنصب الوزارة مثلاً - في إثارة الفتن وتفريق الصفوف ، والعمل على إضاعة هيبة الدولة ، وبلغ بهم الأمر أن قتلوا بعض الخلفاء ونصَّبوا آخرين (و لكن هذا التطور الكبير في الحياة السياسية بالنسبة للموالي لم يزدهم إلا اعتزازاً بأنفسهم ، وشعوراً بقوتهم ، وبدأ يغريهم بالعرب ليستلبوا منهم السيادة إلى الأبد ويسترجعوا سلطانهم القديم)[4] وبذلك ظلت الدولة العباسية مدة حكمها مسرحاً للثورات والانتفاضات والفوضى السياسية

---

[1] - شريك المهري : ت 133هـ ، هو شريك بن شيخ المهري شجاع من الأشراف المقدمين ، كان مقيماً في بخارى ، كان من أنصار أبي مسلم الخراساني ، وقد نقم عليه لسفكه الدماء ، فخرج ثائراً عليه وآزره أكثر من ثلاثين ألفاً ، فوجه إليه الخراساني جيشاً قاتله إلى أن قتل . الكامل في التاريخ لابن الأثير ، جـ: 4، ص: 103.

[2] - الأعلام ، جـ : 4 ص : 72.

[3] - العصر العباسي الثاني، ص:64.

[4] - اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص : 48.

في تدبير شؤون الناس الدنيوية ، إلى جانب ذلك أخذ عداء العرب للموالي يتزايد ، مما أضاف إلى حالة عدم الاستقرار السياسي للدولة ، حالة عدم استقرار اجتماعي تمثلت في الصراع بين العرب والأعاجم. ؛

وهنا تجدر الإشارة إلى أن هذه الأحداث السياسية على اختلافها كان لها دور وأثر مهم في سير الحركة الأدبية ، وبالخصوص على حركة الشعر ، التي يرى الكثير من النقاد أنها قد تكون صورة صادقة معبرة عن عصرها ، فتلونت القصيدة العباسية - بسبب هذه الأحداث - بكثير من ألوان الشعر الطائفي والمذهبي ، كما سنلاحظ في فصل لاحق .

المبحث الثاني : الحياة الاجتماعية

1 ـ الاختلاط بالأجناس والثقافات الوافدة:

اتسمت حياة جل العرب الأوائل أيام الجاهلية بطابع الترحال ، وتتبع مساقط الأمطار ؛ ولم يطب للكثرة الكاثرة منهم الاستقرار في تجمعات مدنية طيلة هذه الفترة ، حتى جاء الإسلام ، وكثرت الفتوحات واتسعت رقعة الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً . فقد شملت هذه الفتوحات عدداً من أجناس الأرض ، ومناطق متباينة جغرافياً ، واقتصادياً ، واجتماعياً ، وثقافياً ، كما أن هذه الفتوحات أخرجت عدداً ضخماً من العرب عن موطنهم الأصلي إلى مواطن أخرى استقروا فيها ، مما أحدث علاقات أخذ وعطاء ، وتأثير وتأثر مع سكان هذه المناطق الأصليين .

ولا يعني هذا أن العرب قبل الإسلام كانوا منغلقين متقوقعين على بيئتهم البدوية الصحراوية ؛ فالمتتبع لكثير من أشعار شعراء الجاهلية يلاحظ وجود كلمات غير عربية في بعض قصائدهم ، وهذا مما يدلّ على وجود علاقات واتصال بين العرب ومن جاورهم ، فعرب الجاهلية إذاً كانوا على اتصال بالحضارات والثقافات الأجنبية .

وقد كان هناك العديد من محطات الاتصال ، التي كان في مقدمتها التجارة (فمنذ أزمان بعيدة كان التجار ينقلون كثيراً من السلع التي كانوا يجلبونها من بلدان العالم المختلفة في آسيا وأفريقيا إلى بلاد العرب حيث تقام أسواق خاصة لذلك ، وفي المقابل كانت القوافل تذهب كل عام من قلب الجزيرة العربية إلى إيران وغيرها من البلاد ؛ حاملة العطور التي كانت تستخدم في البخور وهو عطر العرب)[1] .

ومن محطات الاتصال هذه أيضاً وجود أقليات يهودية ونصرانية داخل جزيرة العرب ، ومن هذه المحطات كذلك (وجود إمارات عربية على حدود فارس والروم ، وخضوع كل إمارة لنظم الدولة الأجنبية التابعة لها)[(2)]

ولكن إذا ما سألنا إلى أي مدى كان تأثير هذا الاتصال بين العرب ومن جاورهم في هذه الفترة ؟ نجد إجابة أحد الدارسين تقول : (هذه الأمور الثلاثة : التجارة ، والإمارات على التخوم ، والنصرانية ، واليهودية ، كانت وسائل لتسرب المدنيات المجاورة إلى العرب ، ونفوذ ثقافتها إليهم ، لكن لم تكن معرفتهم بذلك وافرة ، إنما كانت تتسرب هذه المدنيات من مجرى ضيق وقد ينال التحريف ما ينقلون من غيرهم)[(3)] . وأجد نفسي متفقاً مع هذا الرأي لأنه إذا قارنّا مدى تأثر العرب بغيرهم في فترة ما قبل الإسلام ؛ هذه الفترة التي اتسمت حياة العرب فيها بكل صفات البداوة وما يترتب عنها من عادات وأخلاق ، كانت البيئة العربية في تلك الفترة ملتزمة بها ومحافظة عليها إلى

---

[1] ـ التيارات الأجنبية في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، ص : 17 .
[2] ـ المصدر السابق ، ص: 18.
[3] ـ فجر الإسلام ، ص : 29 .

أبعد حد ، فإذا قارنّا هذه الفترة بفترة عهد بني العباس - مثلاً - لوجدنا أن تأثرهم في فترة الحكم العباسي تفوق بأشواط مدى تأثر العرب بغيرهم في أي فترة سبقت .

وبالمجيء إلى فترة أو عصر حكم بني أمية نلاحظ ازدياد وتوثق الصلات بين العرب ومن جاورهم ، فقد دخلت العديد من القوميات تحت راية الإسلام (ولعل من أهم العوامل المؤثرة في الحياة الاجتماعية منذ القرن الأول حركة التعريب الجنسي ، التي أخذت سبيلها منذ بدء عصر الفتوح عن طريق السبي الذي كان نتيجة مباشرة لحركة الفتح ، وعن طريق الزواج بالكتابيات الفارسيات ، وغيرهن من الأجناس الأخرى ، وعن طريق الموالي وهم من الأعاجم الذين أسلموا وكانوا عاملاً هاماً وخطيراً في نشر اللغة العربية في المناطق المفتوحة ، وفي التقريب بين العنصر العربي والعناصر الأخرى) [1] .

ويرى بعض الباحثين أن فترة الحكم الأموي وإن اتسعت فيها رقعة الدولة الإسلامية ، تظل من ناحية الاختلاط والتأثير والتأثر فترة غير مباشرة فأمر العرب خلالها لم يكن ذا تعقيد في شؤون الحياة اليومية على الصعيد السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، فقد كانوا قريبي العهد بالحياة الجاهلية ولم يطرأ تغيير ذو بال على أنماط هذه الحياة ، وبخاصة في ميدان الشعر الذي يعد المؤرخ والموثق لأحوال المجتمعات (فإذا كانت هذه الفترة - العصر الأموي- هي فترة التأثير غير المباشر في ميدان العلم ، فما بالك بالأدب والشعر بخاصة الذي يظل فترة طويلة لا يستجيب للتغيرات الجديدة في المجتمع إلا بعد أن ترسخ أقدامها ويصبح لها نفوذ قوي في حياة الناس والمجتمع)[2] ، وهذا ما حدث بالفعل حيث إن هذه المؤثرات الأجنبية التي طرأت على العرب لم يظهر صداها في الشعر والأدب إلا بحلول القرن الثاني

[1] ـ اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري . ص : 59 .
[2] ـ التيارات الأجنبية في الشعر العربي . ص : 24 .

الهجري ، مع أنها دخلت حياة العرب منذ اتساع الفتوحات ومنذ اختلط العرب بغيرهم ، وهذا الاختلاط كان من بدايات أو منتصف القرن الهجري الأول .

وما أن نأتي إلى العصر العباسي حتى نجده يمثل قمة الاختلاط والاحتكاك الثقافي ، والاجتماعي ، وغيرهما ، ففي دولة تمتد من حدود الصين وأواسط الهند شرقاً ، إلى المحيط الأطلسي غرباً ، ومن المحيط الهندي والسودان جنوباً ، إلى بلاد الترك والروم والصقالبة شمالاً ، وهي أوطان نشأت فيها العديد من الثقافات والحضارات المتباينة والعادات والتقاليد المختلفة . أخذ العرب يقلدون أكثر هذه العادات والتقاليد ، الأمر الذي دفع أكثر الدارسين والبحاث إلى وصف هذا العصر بأنه عصر سيادة العنصر الأجنبي على العنصر العربي ، أو هو عصر انتصار العجمة على العربية[1] ومثل هذه الملاحظة لا نجدها عند الدارسين المعاصرين فقط بل نجد أنه سبق إليها الجاحظ ابن القرن الثالث الهجري ، حيث قال عن فترة حكم بني أمية (إنها عربية أعرابية) وعن فترة حكم بني العباس (إنها عربية أعجمية)[2]، فقد قصد الجاحظ ومن رأى رأيه من الدارسين المعاصرين إلى أن تأثير الأجانب على دولة بني العباس كان جلياً واضحاً ، وخاصة الفرس الذين قلدهم العباسيون حتى في نظام الحكم والأنظمة الإدارية على اختلافها (ومهما يكن من أمر فقد تغلغل النفوذ الفارسي في هذا العصر في كل شؤون الدولة ... وبخاصة في العصر العباسي الأول ، وقد ترتب على هذا التغلغل الفارسي في جميع شؤون الحياة والدولة ؛ انتشار الحضارة الفارسية ، وبانتشار هذه الحضارة رقت حياة الناس ورقت طباعهم)[3].

ويذكر بعض الدارسين من العوامل التي ساعدت على اختلاط العرب بغيرهم في هذا العصر ، فضلاً عن نزوح بعض القبائل العربية إلى البلدان المفتوحة ، وامتزاج العرب بسكانها الأصليين ، الَّذين يضيف إليهما الدكتور

---

[1] ـ السابق ، ص :25 .
[2] ـ البيان والتبيين ، جـ : 3 ، ص : 206 .
[3] ـ التيارات الأجنبية في الشعر العربي ، ص:25 .

شوقي ضيف دخول كثير من الموالي إلى بيوت العرب في صورة جواري وإماء ورقيق من كل جنس ولون ، ثم تطور الأمر بل صار كثير من أمهات أبناء العرب من غير العربيات[1] .

ويضيف الدكتور عثمان موافي إلى هذه العوامل ؛ وجود شعراء من أصل أجنبي أجادوا اللغة العربية إلى جانب لغتهم الأم ، وكذلك هجرة بعض الشعراء العرب إلى بيئات أجنبية ، ويضرب أمثلة على ذلك بأبي الهندي الذي ذكر أنه أقام فترة بخراسان ، وأضاف عاملاً آخر أدى إلى تبادل الثقافات بين العرب وغيرهم وهو الحرب بين العرب والروم[2]

ومن العوامل التي ساعدت على عملية التأثير والتأثر تلك عامل آخر لا يقل أهمية ؛ وهو عملية الترجمة والنقل عن لغات الشعوب الأخرى ، هذه الترجمة التي ازدهرت في العصر العباسي ، مما ساعد على نقل العديد من أنماط الحياة والعادات والتقاليد والاعتقادات (ولم يختلط العرب باليونان والبيزنطيين إلا اختلاطاً محدوداً عن طريق الرقيق البيزنطي الذي كان يقع في الأسر أو يباع في سوق النخاسة ، وكان تأثيره في المجال العربي محدوداً ، وحقاً إن الثقافة اليونانية أهم ثقافة أثرت في الفكر العباسي ، ولكن عن طريق النقل والترجمة ، لا عن طريق اختلاط أصحابها بالعرب)[3]

ولعل أبرز سمات تأثر العرب بعادات وتقاليد غيرهم من الأمم ما نراه من احتفالهم ببعض الأعياد التي كان الفرس يحتفلون بها ، وأبرز هذه الأعياد عيد النيروز[4] (الذي دخل برسومه وتقاليده الأجنبية إلى المجتمع الإسلامي ، وزاد الاهتمام به في العصر العباسي ، وتسابق العباسيون على ذلك فأحيوا ما كان معروفاً عند الفرس القدماء من عادات وتقاليد خاصة به)[5].

---

[1] ـ انظر العصر العباسي الأول ، شوقي ضيف ، ص : 89 .
[2] ـ انظر التيارات الأجنبية في الشعر العربي ، ص :32 وما بعدها .
[3] ـ العصر العباسي الأول. شوقي ضيف . ص: 96،95.
[4] ـ النيروز : كلمة معربة عن كلمة النوروز الفارسية ، وهو أول أيام السنة عند الفرس . وأصله بالفارسية (نيع روز) وتفسيره : جديد يوم ، وهو أيضاً عيد الربيع عند الفرس ، وكانوا يحتفلون به احتفالات خاصة. انظر لسان العرب ، مادة نرز .
[5] ـ التيارات الأجنبية في الشعر العربي. ص:101.

وقد وردت العديد من الشواهد الشعرية من شعر العصر العباسي تبين مدى الاهتمام بهذا العيد بكل طقوسه ، ومن ذلك قول أبي نواس يصف قدومه واستقبال الناس له كما كان يفعل الفرس[1] :

يُبَاكِرُ النَوْرُوْزُ فِي غَسَقِ الدُّجَى بِنَوْرٍ عَلَى الأغْصَانِ كَالأنجُمِ الزُّهرِ
يَلُوحُ كَأعْلامِ المَطَارِفِ وَشْيُهُ مِنْ الصُّفرِ فَوْقَ البِيضِ والخُضرِوالحُمرِ

ومن الأعياد الأجنبية التي دخلت المجتمع العربي في هذا العصر أيضاً عيد المهرجان[2] ، وعيد السذق[3] ، كما كان الناس أيضاً يشاركون النصارى أعيادهم كما كان الاحتفال بيوم الشعانين[4] عيداً عاماً يشترك فيه جمهور الناس[5] .

وعلى أي فإن الاحتكاك الاجتماعي قوى في العصر العباسي بين العرب وغيرهم ، من الفرس ، والترك ، والهنود ، وأخلاط من الأنباط والزنوج ، وأهل الذمة من النصارى واليهود ، بالإضافة إلى الرقيق ، كل هذا عمل على نقل الكثير من الثقافات الأجنبية إلى البيئة العربية ، لتنعكس آثار ذلك كله على القصيدة الشعرية في هذا العصر.

---

[1] ـ ديوانه ، ص: 222.
[2] ـ وهو عيد يحتفل به الفرس بعد عيد النيروز بمائة وأربعة وتسعين يوماً .
[3] ـ هو عيد مجوسي للنار ، كانوا يوقدونها فيه طوال الليل متغنين من حولها وراقصين . العصر العباسي الأول ، ص : 70 .
[4] ـ من أعياد النصارى وهو عيد يحتفلون فيه بالأشجار ، وخاصة أشجار الزيتون . المرجع السابق ، ص : 70 .
[5] ـ انظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري. ص: 71.

2 ـ حياة الترف والمدنية :

نتج عن الفتوحات الإسلامية التي اتجهت شرقاً وغرباً ، واختلاط العرب بغيرهم من الأمم كما ، أن تأثر العرب بثقافات وعادات مختلفة . كما أن ريع هذه الفتوحات وكثرة الأموال العائدة على طبقات معينة من المجتمع ، كالخلفاء ، والأمراء ، والوزراء ، والقواد ، وكافة رجال الدولة ، ومن اتصل بهم من الشعراء ، والمغنين ، والعلماء فرضت على المجتمع أنماطاً جديدة في كافة مناحي الحياة ، التي من بينها الشعر فللحالة الاقتصادية تأثير على أغراض الشعر واتجاهاته ، من الرضا والسخط والتفاؤل والتشاؤم لدى الشعراء تجاه حياة المجتمع .

وقد شهد العصر العباسي نوعاً من الانتعاش الاقتصادي في بداياته يلاحظ ذلك من خلال اتّباع الناس لأنماط جديدة في أساليب حياتهم ، كالافتنان في أسلوب العمران ، وإنشاء المباني ، فبعد أن كانوا يسكنون الخيام والأخصاص ، أصبحوا يهتمون بإنشاء الدور والقصور الضخمة ، فقد بنى المنصور – على سبيل المثال لا الحصر - بغداد ، وبنى في وسطها قصره المعروف بقصر الخلد ، والمسجد الجامع (وكان في صدر قصر المنصور إيوان طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ، وفي صدر الإيوان مجلس فوقه القبة الخضراء وسمكه من أول حد عقد القبة عشرون ذراعاً ، فصار من الأرض

إلى رأس القبة الخضراء ثمانون ذراعاً ، وعلى رأس القبة تمثال فرس عليه فارس بيده رمح . ولما أتم المنصور بناء مدينته حشر إليها العلماء من كل بلد وإقليم ، وأمها الناس أفواجاً ، فأربى سكانها على مليونين)[1].

كما افتنوا في الملابس المصنوعة من الديباج المطرز، فترك الزي العربي القديم ، واتخذت ملابس جديدة ترجع بعض أصولها إلى الملابس البيزنطية أو الفارسية ، وقد ذكر الجاحظ بعض مظاهر هذا التغير فقال :

(لكل قوم زي ، فللقضاة زي ، ولأصحاب القضاة زي ، وللشرط زي وللكتاب زي ...)[2] ، وهذا التنوع في الملابس التي تختلف باختلاف أوضاع أصحابها الاجتماعية ، يبيّن لنا مدى اتجاه الدولة نحو التحضر والتنظيم الاجتماعي .

وقد طالت هذه النهضة الحضارية حتى أصناف الطعام فطرأت على حياة الناس اليومية ألوان جديدة من الأطعمة تعددت أصنافها ، ومذاقاتها كما أخذ الناس يفتنون في إقامة حفلات زفاف أبنائهم وبناتهم ، ولا سيما الأمراء والوزراء الذين مثلوا أبشع مظاهر الترف والبذخ ، وأخذوا يزينون قصورهم بأفخر وأجود أنواع السجاد الفارسي في ذلك الوقت .

ومع انتشار الثراء والترف وتغلب المادة على طباع الناس ؛ استغل الأمراء والوزراء موارد الدولة ووجهوها لخدمة ذويهم (لقد روي عن المنصور أنه فرض لكل شخص من أهل بيته ألف ألف درهم في كل عام)[3] ، ويعلق الدكتور شوقي ضيف على هذا الخبر بقوله (ولعلنا لا نعجب بعد ذلك إذا عرفنا أن عمر بن مسعدة وزير المأمون خلف بعد وفاته ألف ألف دينار ، ونقل ذلك إلى المأمون فلم يأخذه العجب ، بل قال : هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا)[4] .

---

[1] ـ في الأدب العباسي الرؤية والفن ، ص:256 .
[2] ـ البيان والتبيين ، جـ : 3 ، ص: 250 .
[3] ـ العصر العباسي الأول ، ص : 45 .
[4] ـ المرجع السابق ، ص : 46 .

وكان نظام الإقطاع كذلك فاشياً ، ولم يكن مقصوراً على أجزاء من الأرض في الولاية الواحدة ، بل كان أحياناً يشمل ولاية برمتها (حتى إذا كان القرن الثالث الهجري وسيطر الأتراك ؛ أصبحوا يقطعون الولايات برمتها ، على أن يؤدوا إلى دار الخلافة مبلغاً من المال عدا الهدايا والتحف)[1]، رفع هذا النظام الإقطاعي طوائف محدودة فألهتها القصور والمشيدات ، وطحن طوائف أخرى كثيرة كان عليها أن تواصل العمل ولا تكاد تحصل على قوت يومها ، ولم يكن هذا حال الرجال فقط من آل عباس بل كان النساء كذلك يكنزن الأموال وبيت المال فارغ (يقال إن ثروة الخيزران زوجة المهدي من إقطاعاتها كانت تبلغ مائة وستين مليوناً من الدراهم) ، كما قدرت (ثروة قبيحة أم المعتز بأربعة ملايين ما بين نقود وسبائك الذهب والفضة والزمرد والياقوت ، وقد عجز ابنها عن دفع أعطيات الجند التي لم تتجاوز خمسين ألف دينار ، وأبت أن تدفعها إليه لتنقذ حياته وتفديه من القتل ، وعلى نحو ذلك كانت أم المستعين وأم المقتدر)[2] .

وكان إلى جانب هذا الثراء الفاحش وتوفر جميع متطلبات الحياة الهانئة ، أوقات فراغ رهيب يحس به الفتيان والشباب من الأمراء وأبناء الوزراء والقواد ، فانصرف أغلبهم إلى تزجية هذه الأوقات بتتبع أنواع الملاهي التي شاعت في هذا العصر ، كلعب الشطرنج والنرد ، أو الاتجاه إلى الصيد والطرد ، وكان الغناء من أكثر أنواع اللهو شيوعاً في هذا العصر فأولع به الخلفاء ، والوزراء ، والقادة ووجوه القوم ، بل تعدى الأمر ذلك إلى العامة ، فكان الولع بالغناء والمغنين أكثر من الولع بالشعر والشعراء ، وأصبح الغناء علماً تؤلف فيه الكتب وتستخدم له الآلات ، وما كتاب الأغاني وقصة تأليفه إلا خير دليل على نشاط حركة التأليف في هذا العلم في تلك الفترة ، وما شجع على نشاط هذه الحركة سواء التأليف في الغناء أو امتهان الغناء ذاته ؛ إلا وفرة العطايا والهبات من الأمراء والوزراء وإغداقهم على من أطربهم من

[1] ـ تاريخ الإسلام السياسي والثقافي للعصر العباسي الثاني ، جـ : 2 ، ص : 296 .
[2] ـ اين المعتز العباسي صورة لعصره ، ص: 43 .

المغنين ، وخير شاهد على ذلك أيضاً ما رواه صاحب الأغاني في كتابه من أخبار عما كان ينفقه الخلفاء من أموال ؛ في سبيل الحصول على جارية تجيد الغناء ، ومن هذه الأخبار - على سبيل المثال لا الحصر - (أن المهدي اشترى خفية دون علم أبيه أبي جعفر المنصور المغنية بصبص بسبعة عشر ألف دينار)[1]، كما أن الخليفة الرشيد (اشترى المغنية ذات الخال بسبعين ألف درهم)[2] ، وهكذا فمع ازدياد تدفق الأموال على المدن ؛ ازدادت الرغبة في اللهو والمتعة وحب الشراب والتلذذ بأطايب الحياة الحضارية الجديدة ؛ فكل هذا كان نتيجة انتشار الإقطاع ، وثراء طائفة على حساب أخرى وتفسخ العلاقات الإنسانية ، وسوء أحوال الدولة وضعف الوازع الديني ، فكان هذا مدعاة لتفشي اللهو وتنوعه ، وهذا ما حدث في هذا العصر تقريباً ؛ حيث توافرت أسبابه كما توافرت أنواعه ، وتهيأت له الأزمنة والأمكنة ؛ فكان من آثار ذلك أن تطور حتى جاوز حد الاعتدال .

ولا يعني هذا أن كل طبقات المجتمع العباسي ومختلف أطيافه كانت تنعم بالثراء ورغد العيش ، بل كانت هناك طبقات كُتب عليها أن تكدح وتشقى ليتنعم المستبدون بخيراتها (ومرد ذلك إلى طغيان الخلفاء العباسيين الذين حرموا الشعب حقوقه ، وطوقوه بالاستعباد والاستبداد والعنف الشديد ، وقد مضوا هم وبطاناتهم يحتكرون لأنفسهم أمواله ، وموارده الضخمة حيث كانت هناك طبقة تنعم بالحياة إلى غير حد ، وطبقات قتر عليها في الرزق فهي تشقى إلى غير حد ، واضطرب أوساط الناس بين الشقاء والنعيم)[3].

وكما أنه لم تكن كل طبقات المجتمع تحيا حياة ترف وبذخ ، لم تكن كذلك كل هذه الطبقات تحيا حياة عابثة ماجنة ، بل كانت هناك ردة فعل نتج عنها ظهور تيار آخر يدعو الناس إلى نبذ الدنيا والتوجه إلى الله والمسارعة إلى ما يرضيه ، وهذا التيار هو تيار الزهد الذي عده النقاد من أبرز ملامح التجديد

---

[1] - الأغاني ، جـ : 8 ، ص : 383 .
[2] - المصدر السابق ، جـ : 16 ، ص : 342 .
[3] - العصر العباسي الأول ، ص : 45 .

في موضوعات القصيدة العباسية ، ويمثل هذا المذهب أولئك الذين اتّقوا الله حق تقاته ، وزهدوا في هذه الدنيا الفانية فلم تشغلهم زخارفها وزينتها، بل رأت مثلها الأعلى في الفضيلة الإنسانية ، وفي تجرد النفس من الشهوات .

وإن كان فيما ذكر من الإسراف والترف عند طبقة معينة ظلم وجور على طبقات أخرى ؛ فإن مردود هذا الترف والبذخ على الحياة الأدبية في هذا العصر ؛ كان جليل الفائدة ، فكان فيما توفر من جزيل الهدايا والهبات التي حظي بها الشعراء والأدباء والعلماء ؛ ما جعلهم في حالة تنافس وصراع أدبي وعلمي ليكون لكل واحد منهم قدم السبق في الاتيان بالجديد والطريف ، ومن أجل هذا التسابق والتفنن في كافة الميادين المختلفة في أوساط الشعراء أو العلماء ، أو المغنين ، كفى أصحاب هذه الطبقات مؤونة العيش (فكان منهم كثيرون يرتب لهم رزق معلوم يأخذونه في كل شهر ، أو في كل سنة . بل لقد كان منهم وخاصة المغنين والشعراء من يثرى ثراءً فاحشاً حتى ليقال إنه صار إلى إبراهيم الموصلي المغني أربعة وعشرون ألف درهم ... ويقال إن سلماً الخاسر خلف حين توفي خمسين ألف دينار)[1] . وهي مبالغ كبيرة بالنسبة إلى ذلك الزمن ؛ تبيّن مدى ما تمتع به شعراء العصر العباسي من نعيم وثراء فاحش ، لكن أثره كان واضحاً في تطور وازدهار القصيدة العباسية .

[1] - الأغاني ، جـ : 5 ، ص: 163.

المبحث الثالث

الحياة العقلية .

ازدهرت الحياة العقلية في العصر العباسي ، بما اشتمل عليه من تقلبات سياسية وتيارات حضارية ، وبسبب التدفق الثقافي ، والتمازج العنصري ، وكذلك بسبب الترف والبذخ ، وتشجيع أولي الأمر ، واتساع حركة النقل والترجمة ، فاتسعت ثقافة الناس لتشمل كل شيء ، وتحيط إحاطة دقيقة بكل علم يمكن أن تتناوله قدرة الإنسان ، من طب وفلك وتنجيم ورياضة ، وموسيقى ، وعروض ، وفقه ، وأنساب ، وتاريخ[1] ، فكان لكل هذا أثرٌ على اللغة ، والأدب ، والعلوم ، والفنون العربية .

كانت بداية التعليم في هذا العصر تبتدئ بتعليم القرآن الكريم على يدي شيخ معروف ، في مكان عُرف فيما بعد باسم (الكتَّاب) ، ثم يشرع الصبية يدرسون إلى جانب القرآن الكريم بعض مبادئ القراءة والكتابة ، وشيئاً من الحساب وبعض الأشعار والأمثال . كما كان بعض معلمي هذه الكتاتيب يعلمون الناشئة أيضا السنن ، والفرائض ، والنحو ، والعروض ، وكان هؤلاء المعلمون من أصحاب الكتاتيب يتقاضون من الناشئة أجوراً زهيدة قد تكون بعض أرغفة الخبز - حسب الوضع المادي لأسرة الصبي - ، وكان إلى جانب معلمي أولاد العامة في الكتاتيب معلمون لأولاد الخاصة ، كانوا أحسن حالا ً من معلمي أولاد العامة حيث كانت تفرض لهم رواتب كبيرة ، جعلتهم يتمتعون بشيء من خفض العيش[2]).

ويذهب الصبية عندما تتقدم بهم السن قليلاً إلى حلقات المساجد التي لم تكن فقط دوراً للعبادة ، بل كانت أيضاً أكبر معاهد علم يتحلّق فيها الشباب حول الأساتذة - يكتبون ما يملونه أو يلقونه - وقد كان لكل فرع من فروع المعرفة حلقته أو حلقاته الخاصة ، فحلقة لفقيه ، وحلقة لمفسر وحلقة للغوي وحلقة لنحوي ، كما

[1] - انظر العصر العباسي الثاني ، ص : 106 .
[2] - انظر العصر العباسي الأول ، ص : 98 - 100 .

كانت هناك حلقات للشعراء ، ورواة الشعر والأخبار ، وكان الطلاب يختلفون إلى هذه الحلقات على حسب رغباتهم وميولهم[1] .

وقد ذكر أحد الدارسين من عوامل ازدهار الثقافة والحضارة في كافة فروع العلم المتوفرة في هذا العصر بعض النقاط التالية [2] :

1- التمازج العرقي والحضاري أيقظ العقل العربي على وجوب الانفتاح الثقافي ، والمشاركة في شتى النشاطات العلمية والفنية .

2- تعطش العقل العربي إلى المعرفة ، وقابلية العرب للاستيعاب والتجدد والاستقصاء .

3- تشجيع الخلفاء والأمراء والوزراء ، ولا سيما أبي جعفر المنصور الذي أسس بغداد واهتم بالترجمة ، والمأمون الذي جمع النقلة والمترجمين، وغذى مكتبة بيت الحكمة بالكتب المترجمة عن اللغات الأجنبية في كافة فروع العلم .

4- الترجمة التي أحدثت في العالم العربي انقلاباً فكرياً و لغوياً منقطع النظير .

يُضاف إلى هذه العوامل عاملاً آخر لا يقل أهمية في عملية النهوض بالحركة العلمية في تلك الفترة ؛ وهو ازدهار صناعة الورق في العالم الإسلامي فهذا مما يسَّر نشر العلم ، وساعد في إقبال الناس عليه ، فبعد أن كانت الكتابة على الجلود ، والعظام ، والألواح ، أصبح الأمر أكثر سهولة ، وانتشرت إثر ذلك ظاهرة نسخ الكتب ، فكان من العلماء من ينسخ الكتب لنفسه ومن كان ينسخها لغيره ، كما أنه كان هناك من يحترف هذه المهنة ويتاجر بالكتب ، فتجول تجار الكتب بنتاج العلماء بين الأقطار المختلفة ، ويمكن تصور مدى إقبال الناس وخاصة العلماء والأدباء في قطر معين على كل وافد من الأقطار الأخرى (وكان مما دفع لرواج الوِراقة تنافس كثيرين على اقتناء الكتب واتخاذ المكتبات ،

[1] ـ انظر العصر العباسي الثاني ، ص : 118 . وتاريخ العرب السياسي والثقافي . جـ : 1 ، ص:224.
[2] ـ الجامع في تاريخ الأدب العربي ، جـ:1، 876.

وقد أقامت الدولة منذ عصر الرشيد مكتبة ضخمة هي دار الحكمة ، وعنيت فيها أشد العناية بالكتب المترجمة التي تحمل كنوز الثقافات الأجنبية ، ولا ريب أن هذه المكتبة كانت جامعة كبرى لطلاب العلم والمعرفة)[1].

يُضاف أيضاً إلى ازدهار حركة الوراقة ، والتوسع في إقامة المكتبات والتنافس في اقتناء الكتب ، عامل آخر من عوامل نهوض الحركة العلمية في هذا العصر، وهو مجالس الخلفاء ، والأمراء ، والسراة ، هذه المجالس التي كانت أشبه بمدارس علم ، ومواطن معرفة وملتقى أفكار . وأياً كانت الغاية عند هؤلاء الخلفاء من وراء إقامة هذه المنتديات العلمية ، وتشجيع العلماء على ارتيادها بإجزال العطايا والهبات ، سواء أكان هدفهم سياسياً كنصرة مذهب على آخر مثلاً ، وتقريب فئة دون أخرى . أم كان الدافع وراء هذا الاهتمام هو ولعهم الفعلي بتتبع الجديد في كل علم ، فضلاً عن الشعر والأدب ، فإن النفع الذي تم من وراء هذا كله كان جليلاً ، والأثر الذي عاد على الثقافة والأدب كان عظيماً ، حيث تُجرى المناظرات بين أساطين العلم والأدب على مرأى ومسمع من الخلفاء والأمراء؛ الذين كانوا هم أنفسهم - وفي بعض الأحيان- يشاركون في هذه المناظرات، (وكان من أهم ما عمل على إشعال الجذوة العلمية وإمدادها بوقود جزل لا ينفد مناظرات العلماء في المساجد وقصور الخلفاء والوزراء ، في الكلام وفي الفقه وفي اللغة والنحو ، وغير ذلك من العلوم التي كان يشتد فيها الخلاف والجدل ، وكان الشباب يختلف إلى هذه المناظرات ، ليتعلم قرع الحجة بالحجة وغلبة الخصم بالحق والباطل أحياناً...) [2] .

وقد وصف الدكتور طه حسين ، هذه المجالس بأنها : لم تكن هذه تجتمع في أماكن معينة ، أو منازل معروفة ، وإنما كانت تجتمع حيث يتاح لها الاجتماع ، وكانت تنتقل بأدبها ، وعلمها بين مدن العراق المختلفة ، وبين ما كان في هذه المدن من حدائق وبساتين ، ومن أديرة ومساجد وحانات ، وكانت تجتمع بشكل

[1] - العصر العباسي الأول ، ص : 103.
[2] - العصر العباسي الثاني ، ص :122.

خاص في قصور الخلفاء والوزراء والقادة ، كما كانت تلتقي في هذه المجالس مختلف طبقات العلماء والأدباء ؛ فمن الشعراء اللاهين إلى الفقهاء إلى أصحاب الشك والزندقة ، إلى المتكلمين والرواة وعلماء اللغة[1] .

وقد ازدهر في هذه الفترة نوعان من العلوم : أولهما يُعنى بالتراث بما له من قداسة وعلو شأنٍ ؛ لأنه يتصل بالكتاب والسنة . والآخر يُعنى بالجديد المستحدث وقد كان له رجاله وعلماؤه المتعصبون من أجله (نشأ ما عرف عند العلماء بفرعي الثقافة أو العلوم ، الثقافة العربية الإسلامية ، وعلوم الأوائل أو العلوم الدخيلة الوافدة ، وتشمل الثقافة العربية الإسلامية علوم القرآن ، والحديث واللغة ، والشعر والتاريخ . أما علوم الأوائل أو الدخيلة فتشمل الفلسفة والمنطق والفلك ، والحساب ، والعلوم ، والطبيعة ، كما تشمل بعض الفنون كعلم الموسيقى ، والتصوير ، وما إلى ذلك)[2] .

وكان الداعي إلى الاهتمام بالفرع الأول من فروع هذه الثقافة - أي الثقافة العربية الإسلامية - ضرورة معرفة تفسير القرآن وتفهم معانيه ، والعمل بحدود الله واجتناب ما نهى عنه ، فترتب على ذلك ضرورة معرفة اللغة ؛ وخاصة عند من دخلوا الإسلام من غير العرب ، كما أنه من الأبناء من كانت أمهاتهم غير عربيات . وقد تزامن كل ذلك مع تعدد اللهجات ، وتفشي لغات بعض الأمم الأخرى كالفرس والروم ، وتداخلها مع لغة العرب اليومية ، فهب العلماء - من اللغويين - دفاعاً عن اللغة العربية الفصيحة الصحيحة ، حيث قاموا من أجل ذلك بكثير من الرحلات إلى مشافهة الأعراب الفصحاء ، وانتهى ذلك بنشأة علم النحو (لكل هذه الأسباب انبرى علماء البصرة والكوفة يجمعون ألفاظ اللغة وأشعارها ؛ حتى لا تفنى العربية في لغات الشعوب المستعربة ، وحتى تسلم لهم مقوماتها الأصلية ، وحتى تنفى عنها وتطرح شوائب اللهجات القبلية ، وقد اشترطوا على أنفسهم أن لا يأخذوا اللغة من عربي حضري وأن يرحلوا في طلب اللغة إلى

[1] - انظر حديث الأربعاء ، جـ:2 ، ص : 34 .
[2] - الأدب في عصر العباسيين ، جـ : 2 ، ص :101 .

ينابيعها الصافية ، وقد قصدوا من وراء ذلك إلى غايتين : أولاهما أن يقوموّا ألسنتهم ، وثانيتهما : أن يلتقطوا من الأفواه مباشرة مادتهم اللغوية الصحيحة التي يعرضونها على الناشئة في حلقات المساجد)[1].

وكان أبرز مظاهر هذه الحركة ظهور أكبر مدرستين في تاريخ اللغة العربية وآدابها ؛ وهما : مدرسة البصرة بزعامة أبي عمرو بن العلاء ؛ المتوفى سنة 154هـ ، وقيل بل سنة 159هـ . ومدرسة الكوفة وأشهر مقدميها حماد الراوية المتوفى سنة 156هـ ، وقيل بل سنة 164هـ . ومن هنا بدأت حركة التأليف اللغوي في النهوض ؛ فألفت مجموعات لغوية تدور حول موضوعات بعينها ، ثم انتهت إلى بدايات تأليف المعاجم التي تتقصى المعاني والدلالات للألفاظ التي كان من أولها كتاب العين ؛ المنسوب إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي[2] .

ومن فروع الثقافة العربية كان التاريخ ؛ الذي ظهر نتيجة اهتمام النحاة واللغويين بأيام العرب وأخبارهم التي كانت تتضمنها أشعارهم ، وتلا ذلك الاهتمام بالسيرة النبوية ، ثم الاهتمام بتاريخ من سبق من الرسل ، ومنه إلى تاريخ الأمم المجاورة من الروم ، والفرس ، وغيرهم (وكانت السيرة النبوية مبثوثة فيما يروى من الأحاديث ؛ فأخذ كثيرون يستخلصونها منها ، وعنوا بالقصص عن الأنبياء والرسل ؛ لتوضيح جوانب من القصص القرآني ، والوعظ والتذكير بالله واليوم الآخر ، وعنوا أيضاً بكتابة أخبار اليمن ، وأشعارها وأنسابها ، وملوكها . وما نكاد نتقدم في العصر العباسي حتى تكثر الكتابة عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومغازيه وبعوثه الحربية ، ويلمع في هذا اسم محمد بن إسحق المتوفى سنة 150هـ).[3]

ومن علوم الثقافة العربية الإسلامية علم الكلام ، وإن كان لا يخلو في نشأته من التأثيرات الخارجية ، أي تأثيرات التيارات الأجنبية التي وفدت إلى الساحة العربية المسلمة ، فالقوميات المختلفة التي دخلت تحت راية الإسلام كانت قبل ذلك تعج

---

[1] العصر العباسي الأول ، ص: 118.
[2] ـ انظر الأدب في عصر العباسيين ، جـ : 1 ، ص: 116.
[3] ـ العصر العباسي الأول ، ص: 125.

بالملل والنحل المتباينة والمتشابكة ، وكان أربابها يجتهدون في الترويج لمذاهبهم والدفاع عنها ، وعندما دخل هؤلاء الإسلام أثروا في عقليات العرب والمسلمين ؛ بهذه النواحي الجدلية والفلسفية ، وقد تمثل هذا فيما عرف فيما بعد بعلم الكلام أو الجدل الديني والفلسفي في الأصول والعقائد . ولم يتمثل ذلك في هذا العصر عند علماء المسلمين وحدهم ؛ بل شاركهم فيه علماء من جميع الملل والنحل . وكانت أهم فرق المتكلمين في هذا العصر تتمثل في فرقتي : المعتزلة والأشعرية .

ونرى الدكتور شوقي ضيف يسمي هذا العصر- أي العصر العباسي - بعصر الاعتزال ، وقد قال عن هذه الفرقة إنهم ملؤوا بجدالهم وحجاجهم لهم مساجد البصرة ، وجذبوا بحسن بيانهم وقوتهم في الإقناع وإفحام الخصوم الشباب الشعراء وغير الشعراء ، وإذا الناس لا حديث لهم غير الاعتزال والمعتزلة ومناظراتهم لأصحاب الملل والنحل في المساجد الجامعة[1] .

أما عن سبب تسمية هذه الفرقة بهذا الاسم ؛ فلم أقف على إجماع للعلماء حول سبب بعينه اعتمد لأجله هذا الاسم ، ويورد الدكتور شوقي ضيف آراء تبين اختلاف وجهات نظر أصحابها حول سبب هذه التسمية فيقول: (اختلف الباحثون في سبب تسميتهم معتزلة ، فقيل إن ذلك يرجع إلى اعتزال أستاذهم الأول واصل بن عطاء للحسن البصري ومجالسه ؛ وقيل بل يرجع إلى سريان نزعة زهد فيهم واعتزالهم الناس ، ورجح آخرون أنهم نعتوا بذلك لابتعادهم عن المنازعات الناشئة بين الخوارج وخصومهم من أهل السنة والشيعة)[2] .

ومهما يكن أمر أسباب هذه التسمية والاختلاف حولها ، فإن ما يعنينا هو ما كان من دور فعال لهذه الفرقة وغيرها في إقحام ، وتحفيز العقول لخوض غمار هذه المناقشات والمداولات ؛ العقلية الفلسفية.

ويضاف أيضاً إلى هذه العلوم - أي علوم الثقافة العربية - علوم أخرى مثل النقد والبلاغة ؛ فقد راح بعض الشعراء ، وعلماء اللغة ، ونقادها يبدون بعض الإشارات البلاغية ؛ والنقدية ؛ مما كان له دور في تهذيب الكلام وإكسابه

[1] - انظر المرجع السابق ، ص: 133.
[2] - المصدر السابق ، ص : 133- 134.

الكلام حسناً وجمالاً ؛ وهذه الإشارات النقدية البلاغية أدت فيما بعد إلى ظهور مذهب جديد أخذت تتضح سماته ؛ وهو مذهب الصنعة البديعية في الشعر ؛ حتى جاء ابن المعتز الذي توج كل هذه الجهود بأن صنف كتابه الموسوم بكتاب البديع [1] .

وطبيعي في بيئة مثل هذه نشطت فيها الفرق الكلامية ، والملاحظات البلاغية ، والإشارات الفلسفية ؛ أن يظهر علم آخر واضح المعالم وهو علم النقد ؛ الذي كان أول ظهور له على أيدي الطبقة اللغوية المحافظة ، التي أخضعت كل جديد من الشعر إلى ميزان نقدي صارم ، حتى إن الشعر الجاهلي الذي كان رمزاً للقداسة ؛ لم يسلم من التنقية على يديها ، حيث أبعدت الكثير من الشعر الذي رأته منحولاً ، ومع تقدم الزمن ظهرت مصنفات في هذا العلم ، مثل كتاب الموازنة بين الطائيين للآمدي ، وكتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني ، وكتاب عيار الشعر لابن طباطبا العلوي .

وبالانتقال إلى الفرع الثاني من فروع ثقافة هذا العصر ؛ نجده متمثلاً في النقل والترجمة عن علوم الأوائل والأمم المجاورة ، هذا الجانب الذي لقي إقبالاً واسعاً من العلماء والأدباء ، ولا سيما الخلفاء والأمراء .

وليست الترجمة هنا بمعنى الحديث عن الأعلام وذكر حياتهم وتاريخ ميلادهم وموتهم ، وإنما بمعنى النقل من لغة إلى أخرى ، وقد ازدهرت هذه الظاهرة في العصر العباسي ؛ وكانت عاملاً من أهم العوامل التي عملت على جلب الثقافات ، والتيارات الأجنبية الوافدة إلى الساحة العربية ، فإلى جانب احتكاك العرب المباشر بغيرهم من الأجناس ؛ كانت هناك الترجمة التي حملت إلى العرب قوانين المنطق والعقل ، وكنوز العلوم ، والفلسفة ، والفنون ، ليعود كل ذلك بالفضل الكبير على الأدب ؛ حيث شاعت فيه النزعة العقلية الجدلية القائمة على المقدمات والنتائج ، وهكذا فدور الترجمة عظيم في نقل

[1] ـ انظر العصر العباسي الثاني ، ص : 150 .

أفكار الشعوب ؛ وحضاراتها التي ضمنت في كتابات مفكريها ، وهذا ما حدث فعلاً في العصر العباسي عصر ازدهار هذه الظاهرة .

فالترجمة إذاً تقوم بدور النقل والتأثير والتأثر مع الاستغناء عن عامل الاحتكاك الاجتماعي بين الأجناس ، الذي له دوره الفعال هو الآخر .

فمن الدارسين من يرى أن تأثير الترجمة على الأدب والشعر - وهذا ما يعنينا هنا - أقوى وأسرع من عوامل التأثير الأخرى (لأن التأثير الذي تحدثه ينتقل أول ما ينتقل إلى بيئة المثقفين من العلماء والكتاب والشعراء ، ومنهم إلى بقية أفراد المجتمع وطبقاته المختلفة هذه ناحية ، وناحية أخرى وهي أن الترجمة تنقل الأفكار والنظم التي يحس المجتمع أنه في مسيس الحاجة إليها ؛ إمّا لنفعها المادي وإمّا لطرافتها ، وهذا كله يمكنها من الانتشار والتأثير القوي الفعال)[1] ، ويبدو أن الاحتكاك الاجتماعي عامل أقوى من الترجمة من حيث التأثير والتأثر بين الأمم ، لأن الترجمة تكون مقتصرة على فئات معينة من المجتمع ، تكون في الغالب فئات المثقفين في حين أن بقية طبقات المجتمع التي قد تكون غالبيتها من الأميين تكون بمعزل عن قراءة ما نقل عن الأمم الأحرى عن طريق الترجمة .

وبالحديث عن هذه الظاهرة إبان العصر العباسي نلاحظ شدة اهتمام خلفاء بني العباس بها ، وإنفاقهم على القيمين عليها أموالا طائلة ، فربما كان السبب في ذلك رغبة هؤلاء الخلفاء في معرفة علوم الأمم الأخرى ، وبحثاً منهم عن الترف العلمي والعقلي في زمن ذُللت لهم فيه كل الصعاب ، أو ربما لحاجتهم المادية ، والعلمية لهذه العلوم المترجمة في تسيير حياة المجتمع وقد نقل صاحب كتاب التيارات الأجنبية في الشعر العربي قولا للمستشرق " نالينو " يبرر فيه كثرة إقبال الناس على هذا العلم حيث يقول : (وفي أواخر الدولة الأموية ثبتت سلطة الإسلام على جميع الأمصار ، فعمت العربية أهل تلك الولايات والبلدان ، وغلبت على ألسنتهم الأصلية ، فأخذ المسلمون كلهم من

[1] - التيارات الأجنبية في الشعر العربي ، ص: 112.

أي جنس أو أمة لا يستخدمون في الإنشاء والتأليف إلا لغة العرب ، فابتدأت وحدة الدين تستوجب وحدة اللسان ، والحضارة والعمران ، فصار الفرس وأهل العراق والشام ومصر يُدخلون علومهم القديمة في التمدن الإسلامي الجديد)[1] .

وما أضيفه إلى هذا القول في تفسير أسباب انتشار هذه الظاهرة حينذاك ؛ هو أن اهتمام الناس في تلك الفترة كان منصبا على البحث ، والمطالعة وخاصة عند أصحاب الوجاهة والثروة الذين توفرت لديهم متطلبات الحياة فأصبحوا يبحثون عن الترف العلمي والعقلي ؛ الذي وجدوا ضالتهم منه لدى كتاب الفرس والإغريق ، والهنود ، والرومان ، وأستشهد على ذلك بخبر روي عن يحيى بن الحسن بن معاذ من أنه لقي العتابي• الشاعر في بلاد فارس فتحدثا معاً بالفارسية ، وكان العتابي قدم لينقل بعض الكتب الفارسية إلى العربية ، فحين سأله : لمَ كتبت كتب العجم ؟ قال : وهل المعاني إلا في كتب العجم والبلاغة ، اللغة لنا والمعاني لهم . ثم أخذا يتذاكران باللغة الفارسية[2] .

وبالحديث عن اهتمام خلفاء بني عباس بهذه الظاهرة نلاحظ كثرة إنفاقهم عليها ، وكأنهم لا يريدون لها أن تقف عند حد أو غاية ، فقد كان المنصور أول خليفة ترجمت له كتب عن اللغات العجمية إلى العربية ، ومن هذه الكتب مثلا : كتاب كليله ودمنة . كما تُرجمت له كتب أرسطوطاليس في المنطق ، ونشطت الترجمة في عصر الرشيد ووزرائه من البرامكه نشاطا واسعا فقد، جلب إلى دار الحكمة العديد من النقلة ، كما جلب إليها معظم كتب فارس والروم ، وكان حال أسرة البرامكة في تشجيع هذا العلم يفوق ما قام به الرشيد فقد شجعوا (بكل ما استطاعوا على نقل الذخائر النفيسة إلى العربية من الرومية ، واليونانية ، والفارسية ، والهندية ، من ذلك طلب خالد بن يحيى

---

[1] ـ المصدر السابق . ص: 114، 115.

• هو كلثوم بن عمرو العتابي: من ولد الشاعر الجاهلي عمر بن كلثوم التغلبي ، من أهل قنسرين ، كانت وفاته في مطلع القرن الثالث ، وتفاوت تقديرها بين سنتي : 208 و220 هـ. انظر طبقات ابن المعتز، ص: 262، الأغاني، جـ: 13 ص: 839.

[2] ـ اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري . ص : 100. نقلاً عن كتاب بغداد ص : 87 .

البرمكي إلى بطريرك الإسكندرية أن يترجم في الزراعة كتابا عن الرومية وقد ترجمه برسمه)[1] .

وكلما مضينا في هذا العصر وجدنا موجة هذه الترجمة تزداد حدة ، فقد شجع المأمون عليها تشجيعا واسعا ، وجعل دار الحكمة مجمعاً لطائفة من كبار المترجمين ، أمثال : سهل بن هَرون ، ومحمد بن موسى الخوارزمي ، وعهد بإدارة الترجمة إلى حنين بن إسحق .

ولم تقتصر الترجمة في هذا العصر على علم دون آخر ، أو على الأخذ من حضارة دون أخرى ؛ بل تضمنت كل ما وقعت عليه أيدي المترجمين ، فقد كان هناك نوعٌ من الانتقاء والأولوية في أنواع الموضوعات المترجمة ؛ لكنه لم يكن ذا بال إذا ما قيس بالثروة العلمية التي نقلت في هذا العصر .

ومن فروع العلوم التي ترجمت في هذا العصر ، وأثرت على أنماط الحياة العربية الإسلامية وآدابها ، نجد الفلسفة والمنطق من علوم اليونان ، فقد تولى النساطرة[2] ترجمة كثير من الكتب اليونانية التي كانت قد ترجمت إلى السريانية ، وإلى جانب هؤلاء نجد ابن المقفع الذي لعب دوراً كبيراً في الترجمة سواء عن الفارسية أو اليونانية ، وما علم الكلام الذي ظهر في هذا العصر إلا صدىً واضح لهذه الترجمات ، ولاطلاع العلماء على هذه الحضارات المنقولة وتأثرهم بها ؛ لما شاع فيها من طابع عقلي ، ولصراع أصحابها مع أهل النظر الديني الذين يرون بالتسليم بالغيب دون جدال في ذلك ، فساعد كل هذا على وضع الأسس الفلسفية لدى المسلمين فيما بعد ، وانعكس هذا على الشعر بأن دفع الناس إلى النظر في هذا الشعر واستنباط مواطن الحسن فيه ، وحتى التقاليد الشعرية المقدسة عند كبار شعراء العربية خضعت للنظر أي أنها قيست بميزان العقل ؛ فطرأ عليها بعض التغيير بما يناسب طرق وأساليب الحياة المتحضرة الجديدة . وإلى جانب فلسفة اليونان ؛ نقل

---

[1] ـ العصر العباسي الأول .ص: 112.

[2] ـ النساطرة أو النسطوريون : من السريان ، وهم أعضاء طائفة دينية نصرانية ، عرفت في الجزيرة العربية منذ القرن الخامس الميلادي ، وقد تولت بعد اتساع الخلافة الإسلامية أمر الترجمة والنقل عن اللغة السريانية واليونانية إلى اللغة العربية . انظر الموسوعة العربية العالمية ، جـ : 25 ، ص : 332 .

العرب كتباً في الطب ، والكيمياء ، والصيدلة ، والرياضيات ، والموسيقى ، والفلك [1] .

ويقول الدكتور شوقي ضيف حول هذا الموضوع : (وكانت هذه السيول من الترجمة تُرى معها سيول أخرى من تراث اليونان ، والفرس ، والهند ، حتى ليكاد الإنسان يظن أنه لم يبق شيء من هذا التراث لم ينقل إلى العربية سواء ما اتصل بالعلوم ، أو ما اتصل بالصناعات ، أو ما اتصل بالعجائب والأسماء والخرافات ، أو ما اتصل بالملل والنحل ، وكانت هذه تتجمع في دكاكين الورّاقين ؛ ويطلب كلٌ منها ما يجد فيه متاعه)[2] .

وهنا ناحية أخرى تجدر الإشارة إليها ، وهي ثقافة شعراء هذا العصر التي انعكست على نتاجهم الشعري ، ومرد ذلك إلى أن أغلب هؤلاء الشعراء كان يتقن لغات أخرى - كاللغة الفارسية مثلاً - ، التي قد تكون هي لغة الشاعر الأصلية أتقن إلى جوارها اللغة العربية ، وقد يكون هذا الشاعر عربي الأصل أتقن اللغة الفارسية ؛ بحكم اطلاعاته وثقافة عصره ، وأسفاره ومصاحبته لمن يجيد هذه اللغة أو تلك من شعراء عصره . ومن أبرز الأمثلة على ذلك نجد الشاعر العتابي (عربي الأصل من بني تغلب) الذي روي[3] عنه أنه رحل إلى مرو - إحدى مدن بلاد فارس- فكتب كتباً للعجم ونقلها إلى العربية ، وهذا ما يفسر وجود الكثير من الكلمات الفارسية في بعض قصائد هذا الشاعر ، وكذلك وجود بعض الأمثلة الفارسية ، ولم يقتصر الأمر في هذا على العتابي وحده ؛ ولكن شعراء آخرين كبشار وأبي نواس تغلغلت - وبكثرة - في أشعارهم مثل هذه الكلمات والأمثلة الأجنبية التي تنم عن علم ودراية لديهم بلغات أخرى .

---

[1] - انظر الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثالث الهجري ، ص : 148 ، 149 .
[2] - العصر العباسي الأول ، ص: 148.
[3] - انظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص: 132.

فبعد هذا العرض الذي تناول الحياة العقلية في العصر العباسي ، أصبح من غير المستغرب أن نجد الشعراء يفتنون في صناعتهم الشعرية ، كما هو عند أبي تمام ، والمتنبي ، ثم أبي العلاء المعري .

الفصل الثاني قضايا عامة

ـ القدم والحداثة

ـ الثورة على الموروث (الأطلال نموذجاً)

ـ الصراعات الفكرية والمذاهب الدينية

تقديم

تناول العلماء والنقاد في العصر العباسي كثيراً من القضايا النقدية ، وهي قضايا عامة اتسعت دائرة جدل العلماء في تناولها. فمن أبرز القضايا النقدية التي كانت مدار الجدل في ذلك العصر ، قضية صراع القدماء والمحدثين ، واللفظ والمعنى ، والسرقات الشعرية ، والثورة على المقدمة الطللية . إلى قضايا أخرى مثل اتساع دائرة الطوائف ، والمذاهب الحزبية ، والسياسية ، فكل هذا اهتم به العلماء والأدباء ؛ وانقسموا في تناولهم له بين معارض ومؤيد ، مما عاد على الحياة الأدبية بكل خير ، حيث استُتبع هذا الصراع العلمي الجدلي بأن صُنفت المؤلفات ، ودونت الآراء ، وبرزت ملامح كل مذهب مستقلة عن الآخر .

وسيخصص هذا الفصل للحديث عن ثلاث فقط من هذه القضايا ، لأنها أكثر لصوقاً ، وأشد أثراً على موضوع هذه الدراسة .

فسنقف أولاً عند قضية القدم والحداثة ؛ لأن فيها تأكيداً على أن هناك تجديداً طرأ على شكل ومضمون القصيدة العربية في هذا العصر ، وهذا ما تسعى

هذه الدراسة إلى إثباته . يتضح كل ذلك من أقوال العلماء التي تضاربت بين التعصب للقديم ، والترحيب بالجديد .

والقضية الأخرى هي محاولة الثورة على الموروث ، وأخذت الثورة على الأطلال نموذجاً ، فسيعرف هذا الفصل بمدى انتشار هذه الظاهرة ، كما سيقف عند أول من نادى بها من شعراء هذا العصر ؟ وهل كُتب لهذه الدعوة النجاح ؟ أم إن هذه الدعوة لم تمثل إلا إرهاصات لم يكتب لها الاستمرار ؟ .

والقضية الثالثة التي سيعرض لها هذا الفصل هي اتساع دائرة الشعر السياسي والمذهبي في شعر العصر العباسي . فهذا الجانب يصعب تصنيفه تحت إطار الحياة السياسية من جهة ، أو الحياة العقلية من جهة أخرى ، أو الحياة الاجتماعية من جهة ثالثة ؛ فهذه النواحي الثلاث متداخلة في هذا الجانب ، بل هو ناتج عنها مجتمعة .

وجاءت دواعي الاهتمام بهذا الجانب ، لما لقيه من اهتمام وإقبال واسع لدى شعراء هذا العصر ، فقد تغنى كل شاعر بانتمائه السياسي ، أو الديني أو العقدي ، والأدب العربي غني بالشعر الذي بمثل هذه الاتجاهات ، كما سنلاحظ ذلك في مواضعه من هذا الفصل .

المبحث الأول : القدم والحداثة

الصراع بين القديم والمحدث سمة غالبة على الآداب في كل أمة ، فلا بد من نشوء طبقة تتعصب للقديم وتحرص على تقاليده ، وتفرض سماته على كل من يخوض غمار الأدب ، وتبرز إلى جانب هؤلاء فئة أخرى من النقاد والأدباء تدعو إلى التحرر من قيود القديم ، والانطلاق في التجديد ، ونبذ الأنماط التقليدية ، وهناك فئة ثالثة تبرز إلى جانب الفئتين السابقتين تتوسط بين هؤلاء وأولئك فتستفيد من تجارب السابقين ، وتضيف إليها ما ابتكرته عقول المحدثين ، لما رأته في هذا الأسلوب من مسايرة لروح العصر .

وكان الأدب العربي كغيره من آداب الأمم مسرحاً لهذا الصراع ، فقد تعصبت فئة من علمائه للقديم ونبذت الجديد وغضت من شأنه ، وبلغ الأمر بأكثر هؤلاء العلماء درجة الاستعلاء على هذا الجديد وازدرائه .

برزت هذه الظاهرة في أدبنا العربي عندما احتاج العلماء إلى تفسير القرآن الكريم ، والوقوف على معاني مفرداته ، فوجدوا ضالتهم في الشعر الجاهلي ، وألفاظه العربية الفصيحة الصحيحة[1] . كما أن هذه الحاجة برزت

[1] ـ انظر النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري ، ص : 85 .

عندما اختلط العرب بغيرهم من الأمم ، ونزح أكثرهم من البوادي إلى المدن ؛ فرقت حياتهم وانحرفت ألسنتهم عن العربية الفصيحة . ثم أصبحت هذه الظاهرة لجاجة وعادة تمسك بها أكثر العلماء في هذا العصر ؛ حتى إن نظرتهم هذه ابتعدت عن الموضوعية والإنصاف ، وأكثر أخبارهم تؤيد هذا القول ، وتنفي عن أكثرهم النزاهة فيما ذهبوا إليه .

فأساس هذا الموقف إذاً كان قائماً على عدم الثقة بما يأتي به المولدون ، أو المحدثون من شعر يصلح للاستشهاد به على قواعد اللغة ، والحاجة في ذلك أيضاً إلى الشاهد القديم السليم من كل شائبة . إلا أن الأمر قد تحول بعد ذلك إلى عصبية مطلقة تجاه المولد والمحدث ، فهذا الأصمعي يقول عن أبي عمرو بن العلاء (جلست إليه ثماني حجج فما سمعته يحتج ببيت إسلامي قط ، وسُئل عن المولدين فقال : ما كان من حسن فقد سبقوا إليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم ...)[1]

والاختلاف أو الصراع بين أنصار القديم وأنصار المحدث لم يبرز أو لا يبرز في الأدب وحده بل يتجاوزه إلى كافة مناحي الحياة (وفي الحق إن الاختلاف بين القديم والمحدث ليس مقصوراً على الأدب وحده ، وإنما يتناول كل شيء ، يتناول الفن والعلم ، ويتناول الفلسفة ، ويتناول الحياة نفسها في فروعها المختلفة المادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، وذلك معقول لأن الحياة الإنسانية ... تقوم على أصلين لا ثالث لهما ولا محيد عنهما ؛ هما : البقاء من ناحية ، والاستحالة من ناحية أخرى)[2] .

معنى هذا أن الحياة لابد أن تخضع لقانون التطور والتغير ، ولابد لأبناء كل عصر أن ينطلقوا من واقع حياتهم ، وأن يعبروا عن هذا الواقع ، فهم في الأدب مثلاً لا يمكنهم وصف حياتهم الحالية بتقاليد قديمة موروثة ؛ فقد يقعون في كثير من المفارقات والتناقضات ، ولا يعني هذا التخلي التام عن الموروث الأدبي ، فلا بد للتراث أن يكون حاضراً ولكن بقدر ؛ بحيث لا يطغى على

[1] ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، جـ : 1، ص 91 .
[2] ـ حديث الأربعاء ، جـ : 2 . ص : 3 .

تصوير الحياة اليومية ، فظهور هذا الخلاف كان مرجعه أن دعاة الجديد أقدموا على وصف الحياة الجديدة بكل ما طرأ عليها من تغير ، ونبذوا التقليد الذي كان سائداً للقصيدة العربية ، والذي هو في أغلبه تمثيل لحياة أبناء الصحراء كَبَدوٍ رُحَّل ، ومن هنا أُسقطت نفعية الشعر القديم كأداة تعبير عن الحياة المدنية المتحضرة في هذا العصر .

وملامح هذا التجديد بدأت مع بدايات القرن الثاني الهجري[1] ، بل نجد من يرجعه إلى فترة تسبق ذلك ، حيث عد بعض العلماء شعر جرير والفرزدق من الشعر المحدث ، قال ابن رشيق : (كان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته ، يعني بذلك شعر جرير والفرزدق ، فجعله مولّداً ، بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين ، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين)[2] . ثم توالى ظهور الشعراء ممن كانوا ينزعون إلى التجديد كالوليد بن يزيد ، ومسلم بن الوليد ، وبشار ، حتى تمثلت قمة هذا التجديد فيما بعد في شعر أبي تمام ، وأبي العتاهية ، والمتنبي ، وأبي العلاء المعري .

سبق أن قلنا إن هذا الصراع كان مرجعه إلى انقسام الشعراء والنقاد أو العلماء في ذلك العصر إلى معسكرين ، يتمسك أولهما بالأصول التقليدية لنظام القصيدة العربية ، ويرى فيها من القداسة ما يمنع التجرؤ على تجاوزها أو محاولة الإخلال بهيكلها العام ، وهذه الأصول هي التي تمثل ما تعارف عليه العلماء بعمود الشعر العربي . أما أصحاب المعسكر الآخر فيرون ضرورة التجديد ، ومسايرة تطور الحياة .

وسنعرض هنا بعض المواقف للنقاد حول هذه القضية لنتبين مدى تعصب كل منهم سواء للقديم أم للجديد ، والدافع وراء هذا التعصب ، وهل دوافعهم هذه مقنعة أم أنها بعيدة عن الموضوعية ؟.

---

[1] ـ انظر تطور الشعر في بلاد الشام في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، 1978.

[2] ـ العمدة ، جـ :1 . ص : 90 .

لقد كان موقف غالبية العلماء قائماً على أساس زمني في المفاضلة بين الأعمال الفنية ، فكل ما تقدم به الزمن كان هو الأجدر بالرواية والمدارسة والاستشهاد ، وكان قانونهم ما ترك الأول للآخر شيئاً ، ومن الأمثلة على ذلك ما قاله الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء الراوية والعالم الفقيه ، من أنه جلس إليه ثماني سنوات فما سمعه يحتج ببيت لشاعر إسلامي ، وما روي كذلك عن ابن الأعرابي ، وقد أُنشد شعراً لأبي تمام فقال : (إن كان هذا شعراً فما قالته العرب باطل)[1] ، وقوله أيضاً (إنما أشعار هؤلاء المحدثين مثل الريحان يُشم يوماً ويذوي فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك كلما حركته زدته طيباً)[2] ، وممن ذهب في شعراء عصره هذا المذهب من النقاد ابن سلام الجُمحي ، صاحب طبقات فحول الشعراء ، حيث اقتصر في مؤلفه هذا على الفحول المشهورين من شعراء الجاهلية والإسلام ، ولم يتجاوز هؤلاء إلى غيرهم من المحدثين أو المعاصرين له .

يأتي بعد ابن سلام ناقد آخر خاض غمار التأليف في هذا المجال ، وهو ابن قتيبة صاحب كتاب الشعر والشعراء ؛ الذي يبدو أنه كان أكثر تفهماً وأكثر انفتاحاً من سابقيه لهذه المسألة ، فهو لم يقتصر على شعراء الجاهلية والإسلام فقط ، بل تعداهم ليصل إلى معاصريه ، وقد يذكر المحدث قبل الجاهلي أو الإسلامي لجودة شعره ، وقد قرر قاعدة عامة في مقدمة كتابه تقوم على مبدأين : رفض في أولهما النظر إلى زمن الشعر والاعتماد عليه في المفاضلة بين الشعراء وتقديرهم على أساس قدم عهودهم أو حداثتها فقال في ذلك : (ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى الآخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ، وأعطيت كلاً حظه ، ووفرت عليه حقه)[3] ، أما المبدأ الثاني الذي اعتمده ابن

---

[1] ـ الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، ص : 465 .
[2] ـ المصدر السابق ، ص: 384.
[3] ـ الشعر والشعراء ، جـ :1 ، ص:23 .

قتيبة في تصنيفه هذا الكتاب فهو مبدأ الجودة الفنية ؛ فاعتبرها معياراً نقدياً لتقدير الشعراء بغض النظر عن عصورهم وأزمانهم فقال : (فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ما ذكرناه ، وأثنينا به عليه ... ، كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه أو تقدمه)[1] ، وقد خلص ابن قتيبة بعد ذلك إلى مبدأ نقدي عام وشامل يصلح لكل زمان ومكان ، ويضع حداً للصراع القائم بين أنصار القديم وأنصار الحديث ، فقد رأى أن (الله لم يقصر العلم والبلاغة والشعر على زمن دون زمن ، ولا خصَّ به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره)[2].

ولكن بعد هذا الموقف المعتدل منه في هذه القضية ؛ نجده يقرر أن للقصيدة العربية تقاليد فنية موروثة ، ومحددة تتمثل في هيكلها ، ومنهجها وأقسامها ، وبعد أن أوضح هذه التقاليد والأقسام نجده يقول : (وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام ، فيقف على منزل عامر ، أو يبكي عند مشيد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافي ...)[3] ، وفي هذا تراجع واضح من ابن قتيبة عما قرره من مبادئ يُقيّم على أساسها شعر الشاعر ، بغض النظر عن زمنه ، أو أسلوبه ، أو غرضه الشعري .

ويأتي بعد هؤلاء عالم آخر ؛ يمثل نوعاً من التطرف في هذه القضية ولكنه تطرف مغاير عما شهدناه عند ابن سلام في طبقاته ، وهو ابن المعتز الذي نجده يتعصب للشعراء المحدثين أو المولدين ؛ فيصنف فيهم كتاباً يحمل نفس العنوان وهو(طبقات الشعراء) اقتصر فيه على شعراء العصر العباسي ، وهم الذين تنطبق عليهم تسمية المولدين أو المحدثين ، فلم يورد في كتابه

---

[1] ـ المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
[2] ـالسابق ، ص:23.
[3] ـ المصدر السابق ، ص: 23.

شعراً لشاعر جاهلي أو إسلامي[1] ، وكأن هذا كان رد فعل منه ضد ما اتبعه ابن سلام وغيره من العلماء الذين فضلوا المتقدم على المتأخر ، وقد ذكر ابن المعتز أن الناس في زمانه كانوا يهتمون بأشعار المحدثين وأخبارهم فقد قال : (لكل جديد لذة ، والذي يستعمل في زماننا إنما هو أشعار المحدثين وأخبارهم ...)[2].

كان هذا أمر ابن سلام ونظرته إلى هذه القضية ، يليه موقف ابن قتيبة منها ، ثم تناول ابن المعتز لها ، وقد تراوحت أراؤهم فيها بين متعصب للقديم وآخر منحاز للجديد .

ولكن أمر هذه القضية لم يخل من نظرة عادلة منصفة لدى بعض العلماء الذين رجحوا مقياس الجودة الفنية دون أي اعتبارات أخرى ، فقد نجد الجاحظ فيها صارما ، حيث رمى بالجهل كل من ترك الشعر المحدث بسبب حداثته فقط ، وذلك في قوله : (وقد رأيت أناساً منهم يبهرجون أشعار المولدين ويسقطون من رواها ، ولم أر ذلك قط إلا في راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروي ، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفي أي زمن كان)[3] ، والقاضي الجرجاني الذي يقول : (ودونك هذه الدواوين الجاهلية وانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر ؛ لا يمكن لعائب القدح فيه ... ولولا أن أهل الجاهلية جُدوا بالتقدم ، واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة ، والأعلام والحجة ، لوجدت كثيراً من أشعارهم معيبة مسترذلة ، ومردودة منفية ، لكن هذا الظن الجميل والاعتقاد الحسن ستر عليهم ونفى الظنة عنهم ؛ فذهبت الخواطر في الذب عنهم كل مذهب وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام)[4].

وممن وقف موقفاً معتدلاً من هذه القضية ابن طباطبا العلوي الذي تعرض لها في صدر كتابه عيار الشعر ، فهو لم يسلب المتقدمين حق السبق ، ولكنه في الوقت نفسه يرى أن أشعار المحدثين أولى بالإعجاب والتقدير فيقول : (

---

[1] ـ يقصد بلفظ (إسلامي) هنا: أي أحد شعراء عصر الإسلام الأول؛ الذي سبق عصري بني أمية وبني العباس ، وإلا فإن كل شعراء ابن المعتز في كتابه ـ إلا نادراً ـ كانوا من المسلمين .

[2] ـ طبقات ابن المعتز ، ص : 86 .

[3] ـ الحيوان ، جـ : 3 ، ص:130.

[4] ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص: 4.

والمحنة على شعراء زماننا في أشعارهم أشد منها على من كان قبلهم ؛ لأنهم سبقوا إلى كل معنى بديع ، ولفظ فصيح ، وحيلة لطيفة ، وخلابة ساحرة ...)[1] ، ففي رأيه أن ما يلاقيه المحدثون في نظم أشعارهم من عناء ، يجعلهم أجدر بعناية واهتمام النقاد ، لأنهم سُبقوا إلى كل معنى قريب ولفظ سهل ، ومن هنا كان يتحتم عليهم الاختراع والاتيان بالجديد .

كما تعرض لهذه المسألة ابن رشيق القيرواني ، الذي جاء في العمدة بأقوال الكثيرين ممن سبقه من العلماء حولها ، وقد لخَّص وجهة نظره فيها بقوله (إنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين : ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه ، ثم جاء الآخر فنقشه وزينه ، فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن)[2]. وواضح من قول ابن رشيق هذا أنه ممن يميلون إلى تفضيل القديم .

وخلاصة القول فيمن تعصب للقديم تعصباً فاق حد الاعتدال ، أني لا أجد في نظرتهم هذه شيئاً من الموضوعية ، وخير شاهد على ما ذهبت إليه ما قاله القاضي الجرجاني في الوساطة ، حين رأى أن أكثر من نرى ونسمع من الرواة ، وعلماء اللغة يكثرون من عيب المتأخرين وشعرهم ، وإنك لتنشد أحدهم البيت فيستجيده ويختاره ؛ فإذا علم أنه لأحد شعراء عصره كذب نفسه وتراجع عن رأيه ، ورأى أنه لا يجب التسليم لمحدث من الشعراء[3] ، ويأتي بأخبار تدعم رأيه مثل قوله : (حكي عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي أنه قال : أنشدت الأصمعي :

هَل إلى نَظرةٍ إلَيْكَ سَبِيْل فَيُبل الصّدِى ويُشفَى الغَلِيل

إنَّ مَا قَـَلَّ مِنْكَ يَكثُر عِنْدِي وَكَثِيْرٌ مِمّنْ تُحِبُّ القَلِيْلُ

فقال : والله هذا الديباج الخسرواني ، لمن تنشدني ؟ فقلت : إنهما لليلتهما فقال : لا جرم والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر)[4] ، فهذا الحدث وأمثاله كثر في

---

[1] ـ عيار الشعر ، ص:58.
[2] ـ العمدة ، جـ : 1 ، ص : 91.
[3] ـ انظر الوساطة ، ص: 50.
[4] ـ المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

كتب الأدب ؛ دليل على أن نظرة هؤلاء قائمة في أغلبها على عصبية لا طائل من ورائها ، وتطرف لا سبيل معه إلى تدقيق النظر في الشعر المحدث والوقوف على مواطن الجمال فيه .

المبحث الثاني : الثورة على الموروث (الأطلال أنموذجاً)

تعددت أشكال الثورة على النظام التقليدي الموروث للقصيدة العربية ، وشملت عدة أنماط من التجديد ، تمثلت على سبيل المثال في : الثورة على المقدمة الطللية ، والصراع بين القدماء والمحدثين ، والخروج على عمود الشعر أو النهج القديم للقصيدة العربية ، كما تمثل هذا التجديد في اتجاه الكثير من الشعراء إلى التعبير عن الذات على خلاف الاتجاه القبلي سابقاً ، وأيضاً في الاتجاه إلى تصوير أحداث العصر ، والاتجاه الشعبي والإنساني ، وشعر الإخوانيات والصداقة .

فكل هذه الاتجاهات كانت محل نقاش وجدل بين دعاة التجديد ودعاة المحافظة ، وسنكتفي في هذا المبحث بالحديث فقط عن الثورة على المقدمة الطللية إنموذج ؛ لأنها مكملة لقضية الصراع بين القدماء والمحدثين ، ولأن فيها نزوع إلى التجديد .

إنه مع ما أصاب حياة المجتمع العباسي من تطور كما سبقت الإشارة ، ومع ما صاحب هذا التطور من تفنن الشعراء المحدثين في صوغ أغراض الشعر ، وإبداعهم في معانيه ، رغم كل هذا لا يزال كثير من الشعراء يجرون على سنن السابقين ، أي يجرون على عمود الشعر العربي الذي يدعو إلى الابتداء بالغزل ؛ أو النسيب ، وذكر الديار والأطلال والدمن، ووصف الناقة والرحلة في الصحراء ، وما يصاحبها من أخطار ومغامرات ، والتمهيد بكل ذلك للغرض المطلوب من مديح ، أو تهنئة أو غيرهما ، وإن كان هذا الشاعر المحدث الذي اتبع هذا التقليد ما سلك بادية أو ركب ناقة في حياته ولكنه كان مقلداً في كل ذلك .

وإذا تكلمنا عن بدايات هذا التقليد في الشعر العربي ، نقول إن شعراء الجاهلية في اتباعهم له كان أكثرهم صادقاً ، لأن حياتهم كانت قائمة على الترحال ، فقد يمر هذا الشاعر بآثار ديار كان يقطنها مع أهله في عهد سابق ، أو كانت منزلاً لأهل محبوبته ، وربما التقى محبوبته يوماً في أحد هذه الأماكن ، فيتذكر عهوده السابقة ، ويستلزم ذلك منه حالة شعورية ونفسية خاصة يترجمها في مقدمة قصيدته ، ومن هنا يقف ويستوقف الصحب ويبكي الربوع الدارسة ، ويسأل وإن كان لا يسمع رجع جواب ، ولكن لعله يجد في بكائه هذا شيئاً من العزاء والتسلية .

ثم أصبحت المقدمة الطللية تقليداً شائعاً بين الشعراء ؛ في مختلف الأغراض وخاصة المديح ، وقد علل ابن قتيبة لاتِّباع الشعراء لهذا التقليد وفسره بقوله: (سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار ، والدمن ، والآثار ، فبكى وشكا ، وخاطب الربع واستوقف الرفيق ؛ ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها ... ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد ، وألم الفراق ، وفرط الصبابة ، والشوق ليميل نحوه القلوب ... فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق)([1]). وهذا تعليل مقبول من ابن قتيبة ، ولكنه ينطبق بالدرجة الأولى على من اتبع هذه التقاليد في القصيدة المدحية لغرض التكسب ، أما بداياته فعلاً فكانت عفوية تماماً .

غير أن عدداً من الشعراء المحدثين لم يلتزموا هذا التقليد في أشعارهم وأبدوا منه تبرماً واضحاً ، فهذا أبو الطيب - على سبيل المثال لا الحصر - يتساءل في استنكار لهذا التقليد بقوله[2] :

إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَالنَسِيْبُ المُقَدَّمُ أَكُلُّ فَصِيْحٍ قَالَ شِعْرًا مُتَيْمُ

[1] - الشعر والشعراء ، جـ:1، ص: 31.
[2] - ديوانه ، ص: 43.

وكان أبو نواس من الشعراء الذين أثيرت حول ثورتهم على الأطلال ضجة كبيرة بين النقاد قديماً وحديثاً ، بل نجد مثل هذه الثورة عند بشار الذي سبق عصر أبي نواس ، وذلك في مثل قوله:

كَيْفَ يَبْكِي لِمَحبَسٍ فِي طُلُول مَن سَيُقصَى لِيومِ حَبس طَوِيل

إن فِي البَعْثِ والحِسَابِ لَشُغْلاً عَنْ وُقُوْفٍ بِرَسْمِ دارٍ مَحِيْلِ[1]

ومثل هذه الأبيات من بشار قد لا تمثل دعوة صريحة لنبذ المقدمة الطللية ، لأنه في كثير من قصائده افتتحها بمقدمات طللية ، مثل قوله[2] :

يَا طَلَلَ الحَيّ بِذَاتِ الصَّمَد بِالله خَبِّر كَيْفَ كُنْتَ بَعْدِي

وبشار هو زعيم الشعراء المحدثين بإجماع النقاد (وهي زعامة تُرد إلى أنه استطاع أن ينهج لمن جاء بعده سبيلاً تقوم على التمسك بالأصول التقليدية للشعر العربي من جهة ، ومن جهة ثانية تفسح لتجديد الشاعر العباسي فظلت أساليبه - مهما رقت ولانت - مطبوعة بطوابع النصاعة ، والإيجاز والتركيز...)[3]. ويعد المديح أهم غرض تتضح فيه سمات تمسك بشار بالمنهج التقليدي للقصيدة العربية ، وإن وجد عنده بعض الدعوة لترك هذا التقليد ، فهي دعوة غير جادة ، ولا يلحظ فيها كثير حماس لديه .

إن كثرة الحماس والتشديد على هذه الدعوة نجدهما عند أبي نواس ، الذي عمد في كثير من مقدمات قصائده إلى الدعوة الصريحة للثورة على الأطلال كما نلاحظ سخريته من هذه المقدمات ، ومن أمثلة أسلوبه الساخر في هذا الصدد قوله[4] :

قُلْ لِمَنْ يَبْكِي عَلَى رَسْمٍ دَرَسْ وَاقِفًا مَا ضَرَّ لَوْ كَانَ جَلَسْ

وقوله[5]:

عَاجَ الشَّقِيُّ عَلَى رَسْمٍ يُسَائِلُهُ وعُجْتُ أسْأَلُ عَنْ خَمّارَةِ البَلَد

وقوله[1]:

---

[1] - ديوانه ، جـ : 4 ، ص : 173.
[2] - السابق ص : 513.
[3] - العصر العباسي الأول ، ص: 207، 208.
[4] - ديوانه ، ص : 134 .
[5] - السابق، ص:46.

أحْسَنُ مِنْ وَقفَةٍ عَلَىَ طَلَل كَأسُ عُقَارٍ تُجرَي عَلَى ثَمِل

وكان بديل أبي نواس عن هذه المقدمة الطللية ؛ أن تُفتتح القصائد بالخمريات

وشاهد ذلك قوله[2] :

بُكاءُ الطُّلُوْلِ صِفَةُ القِدمْ فَاجعَل صِفَاتِك لابْنَةِ الكَرْمِ

وقوله[3] :

لَسْتُ لِدَارٍ عَفَتْ بِوَصَّاف وَلا عَلَى رَبْعِهَا بِوَقَّافِ

ولا أُسَلّي الهُمُوْمَ فِي غَسَقِ اللَ يْلِ بِحَادٍ فِي الهُمُوْمِ عَسَّافِ

لَكِنْ بِوَجْهِ الحَبِيْبِ أشْرَبُهَا بَيْنَ نُدَامَى وَبَيْنَ أُلافِ

وهناك من يرى أن هذه الدعوة من أبي نواس كان دافعها شعوبياً محضاً فهو- أي أبو نواس - من خلال هذه السخرية بالمقدمة الطللية ، التي يقدسها الشاعر العربي ؛ يصل إلى التهكم والسخرية بالعرب أنفسهم ، وممن قال بشعوبية أبي نواس من القدامى ابن رشيق القيرواني ، الذي قال في العمدة : (إن أبا نواس كان شعوبي اللسان)[4] .

وفي ذلك يقول أحد الدارسين المحدثين : (إن دوافع أبي نواس لإعلان حركته بدت مشبوهة - أيضاً - بدافع شعوبي غير فني ، فكان هجومه على الطلل يشبع في نفسه رغبة تحقير العربي القديم ، والنيل منه واتهامه بالغباء والتخلف ، فلم تكن ثورته بريئة ، ولا هي خالصة لوجه الفن)[5] .

وممن ذهب إلى القول بشعوبية أبي نواس في هذه الدعوة من الدارسين المحدثين نجد كلاً من : الدكتور طه حسين[6]، والدكتور محمد مندور[7] ، والدكتور أحمد الحوفي[8] ، والدكتور نجيب محمد البهبيتي[9] .

---

[1] - نفسه ، ص: 147.
[2] - السابق ، ص: 57.
[3] - نفسه ، 148.
[4] - انظر العمدة ، جـ :1 ص : 232 .
[5] - مرجعية الشعر العباسي بين الخبر والنص ، ص: 36.
[6] - انظر حديث الأربعاء ، جـ : 2، ص: 90.
[7] - انظر النقد المنهجي عند العرب ، ص : 59 .
[8] - انظر الغزل في العصر الجاهلي ، ص : 322 .
[9] - انظر تاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، ص: 320.

ومن الدارسين المحدثين من يدافع عن دعوة أبي نواس ويبرّئها من أي نزعة شعوبية ، مثل الدكتور شوقي ضيف الذي يقول : (ونحن نظلم أبا نواس إذا سمينا ذلك - كما ذهب بعض المعاصرين - شعوبية حقة ، إنما هو تماجن وإمعان في التماجن)[1] ، ويذهب الدكتور يوسف حسين بكار إلى (أنه لاعلاقة للثورة على الأطلال عند أبي نواس بهذه الشعوبية المزعومة ، بل كانت ثورة لازبة اقتضتها ظروف العصر ... حتى أصبح من غير الممكن لأبي نواس وغيره الالتزام بأشياء غير ماثلة في عصرهم)[2] .

ويرى الدكتور محمد مصطفى هدَّارة في تفسير هذه الظاهرة ، أن غالبية شعراء هذا العصر كانوا من المولدين الذين لا تربطهم بحياة الجاهلية أي عاطفة ما ، فكان طبيعياً ألا يصوروا أشياء لا وجود لها في حياتهم ، وأكثرهم يعيش في حواضر ذات مدنية راقية[3].

ومن الشعراء العباسيين الذين حذوا حذو أبي نواس في هذه القضية نجد الشاعر ديك الجن[4] ، فهو مثلاً يرفض البكاء على الديار العافية لأنه في شغل عنها بالديار المستحدثة ، وذلك في قوله [5]:

نَقِّلْ فُؤادَكَ حَيْثُ شِئتَ فَلَنْ تَرَى كَهَوَى جَدِيْدٍ أو كَوَصْلٍ مقبل

مَا إن أحِنُّ إلَى خَرَابٍ مُقْفِر دَرَسَت مَعَالِمُهُ كَأنْ لَمْ يُؤهَل

مقتي لِمَنزلي الَّذِي اسْتَحْدَثتُهُ أمَّا الَّذِي وَلَّى فَلَيْسَ بِمَنْزِلِ

ومهما كان من أمر هذه الثورة عند أبي نواس ومن اتبعه ، ومهما كانت دوافعها وأسبابها ، فأنه لم يكتب لها النجاح ، وأنها لم تجد لها صدىً واسعاً في أوساط الشعراء ، ولم تُصَغ لها معالم وأصول واضحة ، فقد بدت هذه الدعوة وكأنها تمرد عارض على النهج القديم ، لم ينل من التوفيق والاستمرارية حظاً يذكر.

---

[1] ـ العصر العباسي الأول ، ص: 231.
[2] ـ اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، ص : 98 .
[3] ـ انظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص : 149 .
[4] ـ هو عبد السلام بن رغبان ، وديك الجن لقبه توفي عام 235هـ ، انظر ترجمته في الأغاني جـ: 14، ص: 51.
[5] ـ ديوانه ، ص : 83 .

ومن اللافت للنظر في هذا الجانب أن أبا نواس نفسه لم يستطع الالتزام بهذه الدعوة عملياً ، فقد اتّبع النهج التقليدي القديم في كثير من قصائده المدحية وفي هذا تناقض واضح مع موقفه النظري ، من ذلك قصيدته في مدح الأمين التي استهلها بقوله :

يَا دَارُ مَا فَعَلَتْ بِكِ الأيَّامُ ضَامَتْكِ والأيَّامُ لَيْسَ تُضَامُ

عَرَمَ الزَّمَانُ عَلَى الَّذِيْنَ عَهِدتُهُم بِكِ قَاطِنِيْنَ ولِلزَمَانِ عَرَامُ [1]

وإذا اختلفت آراء النقاد والدارسين حول حقيقة أسباب هذه الدعوة عند أبي نواس ، من أنها راجعة إلى العامل الشعوبي العنصري ، أو أنها راجعة إلى عوامل فنية ، وأخرى تتمثل في ضرورة مسايرة التطور الذي طرأ على هذا العصر ؛ فإن هناك من الشعراء من هو عربي الأصل ، وقد دعا الشعراء إلى الثورة على هذا التقليد ، مثل الأمير عبد الله بن المعتز (الذي أعلن تمرده الصريح على الأطلال دون شبهة الصدور عن حس شعوبي فهو – حينئذ - كان ينطلق من منظور فني صادق يعكس في مثل قوله : [2]

خَلِيْلَيَّ بِالله اقعُدَا نَصْطَبِح بِلا (قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكرَى حَبِيْبٍ وَمَنْزِلِ)

وَيَا رَبِّ لا تُسْقِطْ وَلا تُنْبِتَ الحَيَا (بِسِقْطِ اللِوَى بَيْنَ الدّخُوْلِ فَحَوْمَلِ)

ولَكِنْ دِيَار اللَهْوِ يَا رَبِّ فَاسْقِهَا ودِلَّ عَلَى خَضْرَائِهَا كُلَّ جَدْوَلِ

فمن الممكن هنا أن نرجع أسباب هذه الدعوة عند شاعر كابن المعتز أولاً إلى رغبته في مجاراة معاصريه الذين خاضوا في هذه الدعوة ، أو يمكن إرجاعها عنده إلى نزعة فعلية للتجديد ، والتعبير عن مكنونات النفس بما يساير حياة عصره ، وإذا كان الأمر هكذا ؛ فأن هذه الدعوة عند ابن المعتز كانت خالصة لوجه الفن .

ويمكن إرجاع عدم نجاح هذه الدعوة ، وتراوح الشعراء بين التقليد للقديم ، وبين النزوع إلى التجديد ، يمكن إرجاع ذلك إلى قوة التيار القديم ، ودعوة الحفاظ عليه من قبل العلماء والرواة ، وكذلك ما كان يحرص ويشجع عليه

---

[1] - ديوانه ، ص : 575 .

[2] - ديوانه ، ص : 607 .

الخلفاء والأمراء العباسيون من ضرورة التمسك بالنهج التقليدي ، فأصبح هذا الأمر - أي افتتاح القصائد بالمقدمة الطللية - يمثل أدباً ارستقراطياً راقياً ، أو يمثل ترفاً فنياً يجب على كل شاعر ينظم قصيدة في مدح خليفة ، أو أمير ، أو غيره ألا يتجاوزه .

ولا يعني هذا أنه لا توجد قصيدة إلا وافتتحت بهذه المقدمة الطللية ، بل نجد أن بعض شعراء الجاهلية لم يكونوا ملتزمين تمام الالتزام بهذا النهج ، فقد تجاوزه بعضهم في بعض القصائد ، من ذلك على سبيل المثال قول عمرو بن كلثوم في مستهل معلقته :

(ألا هُبِّي بِصَحنِكِ فَاصبِحِينَا) [1]

كما أن من قصائد الشعراء المحدثين ما افتتحت بموضوعها مباشرة ، ودون مقدمات مثل ما قام به أبو تمام في مدحه للمعتصم وإشادته بانتصاره على الأفشين ، وذلك في قوله :

الحَقُّ أبْلَجُ والسُّيُوفُ عَوَارِ فَحَذَارِ مِنْ أُسُدِ العَرِيْنِ حَذَارِ [2]

كما أن من الشعراء أيضاً من افتتح قصيدته بمقدمة حكمية ، مثل قول المتنبي في افتتاحه مرثيته في جدته :

ألا لا أرَى الأحْدَاثَ حَمْدًا وَلا ذَمَّا فَلا بَطَشُهَا جَهْلاً وَلا كَفّهَا حِلْمَا

إلَى مِثْلِ مَا كَانَ الفَتَى مِرجِعُ الفَتَى يَعُودُ كَمَا أبْدَى ويكرى كَمَا أرمَى[3]

ومن الشعراء من افتتح قصيدته بوصف الطبيعة ، كما فعل الصنوبري الذي نهج نهج أبي نواس في الدعوة إلى ترك المقدمة الطللية ، ولكن البديل عند الصنوبري كان الدعوة إلى وصف الروض ، ومن ذلك قوله :

وَصْفُ الرِّيَاضِ كَفَانِي أن أقِيْمَ عَلَى وَصْفِ الطُّلُوْلِ فَهَلْ فِي ذَاكَ مِنْ بَاسِ

يَا وَاصِفَ الرَّوْضِ مَشغُوْلاً بِذَلِك عَنْ مَنَازِل أوحَشَتْ مِنْ بَعْدِ إيْنَاسِ

---

[1] ـ شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي ، ص : 208 .

[2] - ديوانه ، جـ : 2 ، ص : 198 .

[3] - ديوانه ، جـ : 3 ، ص : 152 .

قُــلْ لِلَّــذِي لامَ فِــيْهِ هَــلْ تَــرَى كَلِفــاً بِــأمْلَحِ الــرُّوْضِ إلا أمْلَــحَ النَّــاسِ[1]

وكل هذه مقدمات مستحدثة في هذا العصر كما سنوضح ذلك في فصل لاحق من هذه الدراسة .

وبعد كل هذا أقول إن شعراء العصر العباسي كانوا مجددين ومقلدين في الوقت ذاته ، لأن الشاعر لا يمكنه أن يصدر عن أشكال فنية لا تحكمها تقاليد الماضي ، كما أن العلاقة بين القديم والجديد لا تكون علاقة تبعية دائمة وأبدية ، والذي يحكم هذه المعادلة هو تطور العصر الحضاري وتبدل أذواق الناس تبعاً لهذا التطور ، أي أن الأشكال الشعرية الموروثة قد تكون عاجزة أحياناً عن إشباع الحاجات الجمالية في حالتها الماثلة ، وهنا تبرز الحاجة إلى التجديد وابتداع أشكال شعرية جديدة تكون أكثر استيعاباً ومماشاة للتجديد الذي لحق بالعصر .

[1] - ديوانه ، ص : 181 .

المبحث الثالث : الصراعات الفكرية والمذاهب الدينية:

مقدمة

أهم ما تمتاز به فترة الحكم العباسي ؛ كثرة الفرق ، والمذاهب ، والطوائف الدينية ، والفكرية ، والحزبية ، وظهور العصبيات القبلية من جديد بعد أن أخمدت في عصر صدر الإسلام ، ويصعب أمر إدراج هذه الفرق تحت إطار الحياة السياسية من جهة ، أو إطار الحياة الفكرية الثقافية من جهة أخرى ، أو إدراجها من جهة ثالثة تحت إطار الحياة الدينية ؛ لأن هذه الفرق مزيج من تداعيات التطور السياسي ، والثقافي ، والاجتماعي ، وفي نفس الوقت لها صبغة دينية لا يمكن إنكارها.

هذا ما دعا إلى دراسة هذه القضايا في هذا الفصل ، بعيداً عن الجانب السياسي ، والثقافي ، والاجتماعي التي درست في الفصل السابق .

كما أن نشوء هذه الفرق كان من أسبابه تأثر العرب بالثقافات ، والعقائد الدخيلة في هذا العصر ، فقد تأثر المثقف العربي بكل ذلك ؛ مما انعكس على نتاج الأدباء ، والشعراء ، وأصبح كل هذا سمة بارزة من سمات الثقافة العربية .

وليس من عزمات هذه الدراسة التأريخ لهذه الفرق والمذاهب ، والاهتمام بنشاطاتها السياسية ، أو غير السياسية ؛ بقدر ما تهتم بدورها الفعال ، والمؤثر على حياة المجتمع العباسي ، وبروز هذا التأثير جلياً في شعره .

1- الحركة الشعوبية:

دخلت جماعات من الأعاجم تحت راية الإسلام ، وعاشت تحت حكم العرب ، بعد أن عم الإسلام الجزيرة العربية وتجاوزها ، واصطُلح فيما بعد على تسمية هذه الجماعات من غير العرب باسم الموالي ، فالموالي إذاً هم أولئك السلمون من غير العرب ، اعتنقوا الإسلام في ظل الحكم العربي .

ومنذ فجر الإسلام كان من أهم المبادئ التي دعا إليها التسوية بين المسلمين جميعاً ، فلا فضل لعربي على أعجمي ، كما أنه لا فضل لقبيلة على أخرى ، وقد تنعم الموالي بهذه النظرة التي تدعو إلى التسوية بين المسلمين جميعاً مدة صدر الإسلام على يد الرسول ﷺ ، وعلى يدي من تبعه من الخلفاء الراشدين ، ومع تقدم الزمن قليلاً - أي في العصر الأموي – نرى الأمويين يذيقون الموالي ألوان الخسف والذل ، ولا يحاولون حتى مجرد التفكير في مساواتهم بالعرب ؛ فأدى ذلك إلى انقسام هؤلاء الموالي ، وتوزعهم بين حركات التمرد التي كانت تترصد دولة بني أمية من علويين ، وشيعة ، حتى تم لهم ما أرادوا تحت راية الثورة العباسية .

ومع انتقال السلطة إلى العباسيين ، وبسبب تسامحهم مع هذه الفئة بدأ يبرز الحس الشعوبي القائم على مناهضة العرب ، والحط من قدرهم كرد فعل على تعالي العرب ، وزهوهم بأنفسهم أيام الأمويين (وكان هذا التحول الخطير في مقاليد الحكم ومع ما أصبح للفرس من مكانة رفيعة سبباً في بروز النزعة الشعوبية ؛ نسبة إلى الشعوب الأعجمية ، وهي نزعة كانت تقوم على مفاخرة تلك الشعوب - وفي مقدمتها الشعب الفارسي - للعرب مفاخرة تستمد من حضارتهم ، وما كان العرب فيه من بداوة وحياة خشنة غليظة)[1] ، ومثل هذا نجده عند بشار بن برد الشاعر الفارسي الأصل ، في إحدى قصائده التي تجسد بشكل واضح نظرة هؤلاء الشعوبيين للعرب ، وهي قصيدته التي مطلعها :

هَلْ مِنْ رَسُوْلٍ مُخْبِر عَنِّي جَمِيْعَ العَرَبِ
مَنْ كَانَ حَيّاً مِنْهُمُ وَمَنْ ثَوَى فِي التُّرَبِ

[1] - العصر العباسي الأول ، 75.

بِأَنَـنِي ذُو حَسَـبٍ عَـالٍ عَلَى ذِي الحَسَبِ

جَـدِّي الَّذِي أسْـمُو بِهِ كِسْرَى وسَـاسَـانُ أبِي[1]

فلم يكتف بشار كما يلاحظ بالأحياء من العرب ، بل تجاوزهم إلى الأموات ، وفي هذا دليل على شدة سخريته وتهكمه ، ثم يعمد بشار في قصيدته هذه إلى عقد موازنة بين ما كان عليه الفرس من الملك والحضارة ، وما كان عليه العرب من أنماط حياة بدوية رعوية في أغلبها ، وذلك في قوله [2] :

وَلا حَدَا قَطُّ أبِي خَلْفَ بَعِيْر جَرِبِ

وَلا أتَى حَنْظَلَة يَثْقُبَهَا مِنْ سَغَبِ[3]

وَلا أتَى عُرْفُطَةً يَخبِطُهَا بِالخَشَبِ[4]

وَلا شَوَيْنَا وَرَلاً مُنَضِنضاً بِالذَّنَبِ[5]

وعلى هذه الشاكلة فالقصيدة تقوم على تحقير حياة العرب ، والعرب أنفسهم ، وفي المقابل تُظهر الفرس ملوكاً ذوي تيجان ، وأصحاب ملك وحضارة ، ومن جهة أخرى أقول لماذا تجنب بشار ذكر ما تحلى به العرب من أخلاق حميدة مثل الكرم ، والمروءة ، والنجدة ؟ لأن ذكره مثل هذه الصفات لا يدعم قضيته في قصيدة غرضه فيها التهكم بالعرب .

ويضاف إلى تحدي هؤلاء الشعوبيين للتقاليد الاجتماعية لدى العرب ؛ تحديهم للتقاليد الفنية في الشعر العربي ، كما رأينا في موضوع الثورة على الأطلال .

ومثل هذه النظرة الساخرة من أنماط الحياة العربية البدوية قبل الإسلام ، والتي تمثلت في بعض شعر بشار ؛ نجد مثيلاً لها في بعض شعر أبي نواس مثل قوله [6] :

فَهَذَا العَيْشُ لا خِيْم البَوَادِي وَهَذَا العَيْشُ لا اللَبَن الحَلِيْبُ

---

[1] ـ ديوانه ، جـ: 2 ، ص :27 .

[2] ـ السابق، ص: 28.

[3] ـ الحنظل : شجر من شجر العضاه يأكلونه في المجاعة .

[4] ـ العرفط : نبت ترعاه النحل فيكون في عسلها رائحة غير محمودة .

[5] ـ الورل : دويبة مثل الضب ، ومنضِنض : متحرك بذنبه صفة للورل .

[6] ديوانه، ص: 396.

فَأيْنَ البَدْوُ مِنْ إيوَانِ كِسرَى وَأيْنَ مِن المَيَادِيْنِ الزُّرُوبُ

فهو يصور حياة العرب في سخرية لاذعة ، ويصور حياة الفرس في اعتداد وتيه .

وكما كان بشار ، وأبو نواس شعوبيين في بعض أشعارهما ؛ نجد كذلك ديك الجن - أعجمي الأصل - يصرح في إحدى قصائده في زهو وإصرار ؛ بأنه لا ينتمي إلى العرب حين قال [1]:

إنِّي بِبَابِكَ لا وِدِّي يُقَرِّبُنِي وَلا أبِي شَافِعٌ عِنْدِي وَلا نَسَبِي

إنْ كَانَ عرفُك مَذخُوراً لِذِي سَبَب فَاضْمُم يَدَيْكَ عَلَى حُر أخِي سَبَبِ

أو كُنْتَ وَافَقتَه يَوماً عَلَى نَسَب فاضْمُم يَدَيكَ فإنِي لَسْتُ بِالعَرَبِي

إنِّي امْرِؤٌ بَازِلٌ فِي ذِرْوَتَي نَسَبٍ لِقَيْصَرٍ وَكِسْرَى محتَدِي وأبِي

وقد بلغت الحركة الشعوبية أوجها في القرن الثالث الهجري ، وساعد على ذلك الخلفاء العباسيون أنفسهم الذين (تعصبوا للإسلام ، ولم يتعصبوا كثيراً للعربية ، فحاربوا الزندقة ، ولم يحاربوا - في شدة - النزعة العجمية ، وذلك طبيعي لأن أكثرهم مولدون)[2] .

وهكذا اتسعت هذه الحركة من الصراع العنصري ، وكانت الفتن لا تنتهي بين عنصر العرب المعتز بعروبته ، وبين العناصر الأخرى كالفرس ، والترك ، الذَين عملوا جاهدين على ازدراء العرب ، وتشويه ماضيهم وحاضرهم ، يتضح ذلك من اتساع دائرة الشعر الذي يعبر عن هذه النزعة في هذا العصر ، ومثل ذلك قول مهيار الديلمي• الذي يفتخر بأصله الفارسي فيقول[3]:

أتَعْلَمِيْنَ يَا بْنَةَ الأعَاجِم كَمْ لأخِيْكِ فِي الهَوَى مِنْ لائِمِ

يَهُبُّ يَلْحَاهُ بِوَجهٍ طَلِقٍ يَنْطِقُ عَنْ قَلْبٍ حَسُوْدٍ رَاغِمِ

وَهْوَ مَعَ المَجْدِ عَلَى سَبِيْلِهِ مَاضٍ مَضَاء المَشْرِفِي الصَّارِمِ

مُمتَثِلاً مَا سَنَّهُ آبَاؤهُ إنَّ الشُّبُولَ شَبَهُ الضَّرَاغِمِ

---

[1] - ديوانه ، ص: 156.

[2] - ضحى الإسلام ، جـ :1 ، ص : 63

• مهيار الديلمي، ت: 428، هو: أبو الحسن مهيار بن مرزوبة الديلمي، ولد ببغداد ، شاعر كبير في معانيه ابتكار ، وفي أسلوبه قوة قال عنه الحر العاملي : جمع مهيار بين فصاحة العرب ومعاني العجم . انظر الأعلام ، جـ : 7 ، ص : 317 .

[3] - ديوان مهيار الديلمي ، ص: 64.

مِن أيْكَةٍ مُذْ غَرَسَتْهَا فَارِسُ   مَا لانَ غَمْزاً فَرْعُهَا لِعَاجِـمِ

ثم يذهب إلى ذكر الفرس وما كانوا فيه من الملك ، والسياسة ، والعدالة ، ويبكي ذلك بدموع غزار في قوله :

لِمَنْ عَلَى الأرْضِ وكَانَت غَضَّةً   أبنِيَةٌ لا تُبْتَغَى لِهَادِمِ

مَنْ فَرَسَ البَاطِلَ ؟ مِنْ الحَقِّ وَمَنْ   أرغَمَ لِلمَظلُوْمِ أنْفَ الظَّالِمِ

إلا بَنُو سَاسَانَ أو جُدُوْدُهُم   طِرْ بِخَوَافِيْهِم وَبِالقَوَادِمِ

أيُّـهُمْ أبْكِي بِدَم ؟ فَكُلُّهُم   يجِلُّ عَنْ دُمُوعِي السَّوَاجِمِ[1]

وهكذا فقد كانت هذه النزعة تهدف إلى تحقيق المساواة بين العرب وغيرهم ، ومع مجيء الدولة العباسية ، وتمكن الأعاجم من المناصب الرفيعة فيها أخذوا يزدادون كرهاً ، ومعاداة للعرب ، بل كانوا يرمون إلى الاستقلال والانفصال ، واستعادة دولتهم ، وحضارتهم الغابرة .

2 - الشيعة :

الشيعة أو العلويون هم فرقة من الفرق الإسلامية ، يرى أتباعها أحقية علي - كرم الله وجهه - وبنيه من بعده دون سواهم بالإمامة ، وقد كان أتباع هذا المذهب في بداية أمرهم ينضوون تحت راية العباسيين ، فقد كان يجمعهم هدف واحد هو القضاء على الحكم الأموي ، واسترجاع الخلافة المغتصبة في نظرهم . ولكن عندما انتهى الأمر إلى بني العباس استحوذوا على الخلافة دون أبناء عمومتهم العلويين .

ومن ناحية الشعر فقد شدد العباسيون في بداية عهدهم على شعراء هذا المذهب ، فلم يُسمع لهم في هذه الفترة شعرٌ يقدح في خلافة بني العباس ، ويقول بأحقية آل علي فيها ، إلا بعض شعراء فرقة الكيسانية ، وهم أتباع أبي

[1] - السابق ، ص: 64.

هاشم بن محمد بن الحنفية الذي تنازل عن الإمامة لبني العباس ، وأوصى أتباعه بطاعتهم ، وهذا ما جعل بعض شعرائها أمثال السيد الحميري*. يسخِّرون شعرهم في الدعاية لبني العباس ، وما عدا ذلك فإن غيره من الشعراء لجأوا إلى النفاق ، أو اعتمدوا على ما يعرف عندهم بمبدأ التقية ° ، لكي يتحاشوا شر العباسيين من جهة ، ولكي ينالوا بعض العطاء من جهة أخرى ، وممن اتبع هذا المبدأ منهم نجد منصور النمري ، وهَرون بن سعد العجلي[1].

ولكن ما إن نصل إلى القرن الرابع الهجري حتى نشهد ازدهار هذه الحركة ، فقد كان البويهيون مثلاً - وهم من الشيعة - يقوون شوكة هذا المذهب وكذلك كانت في الشام الإمارة الحمدانية ، كما تغلبت الشيعة على الشام مدة لا بأس بها ، وقد تمثل نشاط هؤلاء بالدرجة الأولى في خلافاتهم مع السنة[2] .

وأشعار هذا المذهب تدور في أغلبها حول أحقية العلويين في الخلافة ، وحول الإشادة بأتباع هذا المذهب وأئمته ، وإعلان الولاء الخالص لهؤلاء الأئمة ، وآل البيت . ويتسم هذا الشعر أيضاً بعاطفة حزينة شجية ، تصف ما تعرض له أتباع هذا المذهب من جور ، وظلم في نظرهم .

نجد كل هذا في شعر السيد الحميري ، الذي يراه البعض أكثر الشعراء حباً لعلي وبنيه ، قال عنه ابن المعتز : (لم يترك لعلي بن أبي طالب عليه السلام فضيلة معروفة إلا نقلها إلى الشعر)[3] ، ومن شعره في علي رضي الله عنه قوله :

أُقْسِـــمُ بِاللهِ وَآلائِهِ وَالمَرْءُ عَمَّا قَالَ مَسْؤول
إنَّ عَلِيَّ بْنَ أبِي طَالِبٍ عَلَى التُّقَى والبِرِّ مَجْبُول[4]

---

* السيد الحميري. ت 170هـ : السيد لقبه واسمه إسماعيل بن محمد بن يزيد ، ويكنى أبا هاشم . كان شاعراً مطبوعاً وله ديوان كبير، قال عنه أبو الفرج : (وإنما مات ذكره وهجر الناس شعره لما كان يفرط فيه من سب الصحابة وأزواج النبي ﷺ في شعره ويستعمله من قذفهم والطعن عليهم فتحومي شعره من هذا الجنس) الأغاني ، جـ:7، ص: 251.

** التقية : عرف هذا المصطلح في الشعر العباسي ، عند الشعراء الذين لم يسلموا بأحقية العباسيين في الخلافة ، بل قالوا إنها من حق آل البيت ، فهؤلاء هم شعراء الشيعة ، ولكنهم اضطروا لمدح خلفاء بني عباس اتقاء لشرهم من جهة ، وحرصاً على الفوز بعطاياهم من جهة أخرى . فأطلق على شعرهم هذا شعر التقية .

[1] ـ انظر العصر العباسي الأول ، ص : 305.

[2] ـ انظر الأدب في عصر العباسيين ، جـ : 2 ، ص : 14 .

[3] ـ طبقات ابن المعتز ، ص: 32.

[4] ـ الأغاني ، جـ : 6 ، ص: 247 .

ومن حسن شعره أيضاً في آل علي رضي الله عنهم (قوله ناظماً ما روي من أن الحسن ، والحسين أتيا الرسول - ﷺ - فوجداه ساجداً فركبا على ظهره ، فقال عمر : نعم المطي مطيّكما ، فقال الحميري في هذا الموقف[1] :

أتَى حَسَنُ والحُسَيْنُ الرَّسُوْلَ وَقَدْ بَرَزَا صَحْوَةً يَلعَبَانِ

فَضَمَّهُمَا ثُمَّ فَدَّاهُمَا وَكَانَا لَدَيْهِ بِذَاكَ المَكَانِ

وَرَاحَا وَتَحْتَهُمَا عَاتِقَاهُ فَنِعْمَ المَطِيَّةِ وَالرَّاكِبَانِ

ومن الشعراء المشهورين بالتشيع ديك الجن ، ومنصور النمري ، ودعبل ابن علي الخزاعي ، الذي له تائية مشهورة في آل البيت مفعمة بالعاطفة ، والمشاعر الصادقة ، قال عنها ابن المعتز : (وهي أشهر من الشمس)[2] منها قوله :

ذَكَرْتُ مَحَلَّ الرَّبْع مِنْ عَرَفَاتِ فَأجْرَيتُ دَمْعَ العَيْنِ بِالعَبَرَاتِ

وَفَلَّتْ عُرَى صَبْرِي وَهَاجَتْ صَبَابَتِي رُسُوْمُ دِيَارٍ أقْفَرَتْ وَعِرَاتِ

مَدَارِس آيَاتٍ خَلَت مِنْ تِلاوَة وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مُقْفِرُ العَرَصَاتِ

لآلِ رَسُوْلِ الله بِالخِيْفِ مِنْ مِنًّى وبِالرُّكْنِ والتَّعْرِيْفِ والجَمَرَاتِ

دِيَارُ عَلِيّ والحُسَيْنِ بنْ جَعْفَرٍ وحَمْزَةَ والسَّجَاد ذِي الثَّفَنَاتِ

مَنَازِل كَانَت لِلصَلاةِ وَلِلتُقَى وِلِلصَوْمِ وَالتَّطهِيْر وَالحَسَنَاتِ

مَنَازل جِبرِيْلُ الأمِيْنُ يَزُوْرُهَا مِنْ الله بِالتَسْلِيْمِ والرَحَمَاتِ

مَنَازِل وَحْيِ الله مَعْدِنُ عِلْمِهِ سَبِيْلُ رَشَادٍ وَاضِحُ الطُّرُقَاتِ

دِيَارٌ عَفَاهَا جَوْرُ كُلِّ مُنَابِذٍ وَلَمْ تُعْف بِالأيَّامِ وَالسَنَوَاتِ.[3]

كما قال عنه ابن المعتز: (وهو صاحب التائية الأخرى التي منها :

طَرَقَتْكِ طَارِقَةُ المُنَى بِبَيَاتِ لا تُظْهِرِي جَزَعاً فَأنْتِ بَدَاتِ

فِي حُبِّ آلِ المُصْطَفَى وَوَصِيِّهِ شُغْلٌ عَنِ اللذَاتِ وَالقَيْنَاتِ

إنَّ النَّشِيْدَ بِذِكرِ آلِ مُحَمَّدٍ أزكَى وَأنفَعُ لِي مِنَ القَنيَاتِ

---

[1] - طبقات ابن المعتز ، ص:35.
[2] - المصدر السابق ، ص : 267 .
[3] - نفسه ، الصفحة نفسها .

فَاحْشُ القَصِيْدَ بِهِمْ وَفَرِّغ فِيْهِمُ قَلباً حَشَوْتَ هَوَاهُ بِاللذَاتِ ..إلخ)[1]

وهكذا فقد كان لهذا المذهب ، وتفرعه إلى فرق كثيرة نتاج شعري غزير نادى فيه شعراؤه بآرائهم وحقهم في الخلافة ، ورأوا أنه من العدل استعادة هذا الحق من مغتصبيه .

3 - **المعتزلة**:

من الفرق الكلامية التي اشتهر بها هذا العصر ، وقد تفرقت إلى شعب كثيرة بلغت العشرين على قول ابن طاهر البغدادي ، وسبع عشرة على قول الرازي ، وقد اختلفت فيما بينها خلافاً حاداً وصل إلى درجة تكفير بعضها بعضاً([2]) ، وهي في عمومها تدعو إلى توحيد الله ، والدفاع عن عقيدة الإيمان (وتتفق فرق المعتزلة على نفي صفات الله من العلم والقدرة ، وعلى أن القرآن محدث ومخلوق ، وأن الله تعالى ليس خالقاً لأفعال العبد) [(3)] .

ومن أعلامها واصل بن عطاء وهو مؤسسها ، وبشر بن المعتمر، والنظَّام والجاحظ ، وغيرهم .

كان نشاط هذه الفرقة سبباً في صبغ العقول بصبغة فلسفية عقلية ، وذلك راجع في أكثره إلى ما اطلعوا عليه من ثقافات وافدة مع ما توافر لديهم من الثقافة الإسلامية ، وقد بلغ من أمر اشتهار هذا العصر بهم في أن البعض أطلق عليه اسم عصر الاعتزال [(4)] .

أعجب أكثر شعراء هذا العصر بالمساجلات الكلامية الفلسفية لهذه الفرقة ، فأخذوا يترددون على حلقاتها في المساجد ، وقد كانت حلقات المعتزلة من

---

[1] ـ نفسه ، ص : 267 ، 268 .
[2] ـ انظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص : 355 .
[3] ـ المرجع السابق : ص : 355 .
[4] ـ انظر العصر العباسي الأول ، ص : 414 .

أكثر حلقات الدرس في هذه المساجد ، وممن تتلمذ على أعلام هذا المذهب من الشعراء بشار بن برد ، وأبو نواس ، وأبان بن عبد الحميد اللاحقي ، وأبو تمام وقد ردد هؤلاء الشعراء الكثير من مصطلحات أهل هذا المذهب في أشعارهم [1] .

وإلى جانب هؤلاء كان لهذا المذهب شعراؤه الذين نظموا الشعر في آرائه ، كما تولوا مهمة الرد على غيرهم من شعراء الملل والنحل المختلفة ، مثل الشاعر صفوان الأنصاري تلميذ واصل بن عطاء ، الذي تصدى لبشار ابن برد عندما اتهمه العلماء بالإلحاد ، وذلك في تفضيله النار على الطين ، وإبليس على آدم ، وأبيات بشار التي اتهم بها هي قوله[2]:

الأرْضُ مُظْلِمَةٌ والنَّارُ مُشْرِقَةٌ والنَّارُ مَعْبُودَةٌ مُذْ كَانَتْ النَّـارُ
إبلِيْسُ أفْضَلُ مِنْ أبِيْكُم آدَمُ فَتَنَبَّهُوا يَا مَعْشَرِ الفُـجَّارِ
الـنَّارُ عُنْـصُرُهُ وآدَمُ طِيْـنَةٌ والطِـيْنُ لا يَسْـمُو سُمُوّ النَّـارِ

فكانت أبيات صفوان المعتزلي التي رد بها على بشار هي[3]:

زَعِمْتَ بِأنَّ النَّارَ أكْرَمُ عُنْصُراً وفِي الأرْضِ تُحْيَا بِالحِجَارَةِ والزِنْدِ
وتُخْلَق فِي أرْحَامِهَا وأرُوْمِهَا أعَاجِيْبُ لا تُحْصَى بِخَطٍّ وَلا عَقْدِ
وَفِي القَعْرِ مِنْ لُجِّ البِحَارِ مَنَافِعٌ مِنْ اللُؤلُؤِ المِكْـنُونِ والعَنْبَرِ الوَرْدِ

ومن شعراء المعتزلة أيضاً بشر بن المعتمر ، الذي كان حسن الجدال قوي الحجة ، وقد جعله الجاحظ أكثر علماء المعتزلة رواية للشعر[4] ، وهو الذي يقول في فرقة الجهمية وهي إحدى فرق المعتزلة :

نَنْفِيهُم عَنَّـا وَلَسْـنَا مِنْهُم وَلا هُـمْ مِـنَّا وَلا نَرْضَـاهُم
إمَامُهُم جَـهْمٌ وَمَا لِجَـهْمٍ وَصَحْبُ عَمْـرٍو ذِي التُّقَى والعِلم[5]

وله أيضاً قوله:

قَدْ غَمَـرَ التَّقْلِيْدُ أحْلامَهُم فَنَاصَـــبُوا القَيَّاسَ ذا السَّبْر[1]

---

[1] ـ انظر المرجع السابق ص: 133 .
[2] ـ البيان والتبيين ، جـ :1 ، ص : 16 .
[3] ـ المصدر السابق ، ص : 29 .
[4] انظر العصر العباسي الأول ، ص : 427 ، وانظر البلاغة تطور وتاريخ ، ص : 41 وما يليها.
[5] ـ الحيوان ، جـ : 4 ، ص : 239 .

فالشاعر هنا يعرِّض بمن رفض تحكيم العقل ، والمنطق والقياس بهما .

والنظَّام كذلك من شعراء هذا المذهب ، ففي هذا المذهب فرقة تسمى بالنظّامية نسبة إليه[2] ، وشعره مطبوع بطوابع المتكلمين ، وقد ضمن شعره الكثير من أفكارهم ومصطلحاتهم ، مثل قوله[3] :

رَقَّ فلَو بزَّتْ سَرَابِيلُهُ تَعَلَّقَهُ الجَوُّ مِن اللُطْفِ

يَجْرَحُهُ اللَفْظُ بِتَكْرَارِهِ وَيَشْتَكِي الإيْمَاءَ بِالطَرْفِ

فقد ابتعد كثيراً في تصور الأشياء ، وهكذا كان تأثير المعتزلة في الأدب ، فقد أغنوه من حيث المعاني ، وقوة العقل ، وسعة الذهن ، وتوليد الأفكار[4] ، وهذا مما لا يمكن نكرانه على شعراء هذا المذهب الذين كان في شعرهم نزوع إلى الفلسفة والخضوع إلى العقل .

---

1 ـ العصر العباسي الأول ، ص : 429 .
2 ـ انظر ضحى الإسلام ، جـ : 3 ، ص : 106 .
3 ـ طبقات ابن المعتز ، ص: 271 .
4 ـ انظر ضحى الإسلام ، جـ : 3 ، ص : 314 .

4 - شعراء الدولة العباسية :

كان من الطبيعي أن يكون للبلاط العباسي من يرتاده من الشعراء ؛ الذين يرغبون في النوال والعطايا ، فعادة الشاعر العربي منذ الجاهلية أن يقف على أبواب الملوك ، وينشدهم المدائح ، ويظفر بالتالي بالأموال الطائلة ، كما عرف عن النابغة الذبياني[1] ، وقد ازداد شيوع هذه الظاهرة أيام بني أمية ثم ، بني العباس ، الذين يعتبر عصرهم من أطول عصور الأدب العربي وأكثرها ازدهاراً ، بل كان هو العصر الذهبي لهذه اللغة وأدبها ، حيث قيل فيه الكثير من الشعر في الخلفاء ، وفي الدعاية والترويج لخلافتهم ، والقول بأحقيتهم في هذه الخلافة ، ويمكننا أن ننظر كدليل على ذلك - مثلاً - لكتاب طبقات الشعراء لابن المعتز ، الذي نص في مقدمته على أنه سيقتصر فيه على ذكر ما وضعه الشعراء من شعر في مدح الخلفاء ، والأمراء ، والوزراء من بني العباس .

وسنكتفي هنا بذكر بعض هؤلاء الشعراء ، وبعض ما قالوه من شعر في الدولة العباسية وخلفائها ؛ علماً بأن هذا الشعر ينقسم إلى قسمين ، قسم امتزج فيه مدح العباسيين بالدعوة والترويج لأحقيتهم في الخلافة ، وقسم آخر اقتصر فيه أصحابه على مدح الخلفاء فقط .

وهكذا فمن شعراء الدولة العباسية نجد مروان بن أبي حفصة[2] ، الذي ضمَّن أكثر مدائحه في بني عباس ؛ دفاعه عن حقهم في الخلافة ، والرد على

---

[1] - انظر العمدة ، جـ :1 ، ص : 80 .

[2] - هو مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة شاعر مكثر من الفحول المقدمين ، كان مشهوراً بالميل عن العلويين معرضاً بهم في شعره ، وقد كانت بسبب هذا بينه وبين علي بن الجهم مهاجاة مقذعة. انظر وفيات الأعيان،جـ :5 ، ص : 189 . وطبقات ابن المعتز ص : 42 .

العلـويين ؛ الـذين ادعـوا أن بنـي العبـاس سـلبوهم حقهـم فـي الإمامـة ، وخلافـة الأمة ، ومن أمثال ذلك قوله[1] :

هَلْ تَطْمُسُون مِنْ السَّمَاءِ نُجُوْمَهَا بِأكُفِّكِم أوْ تَسْتُرُون هِلالَهَا

أوْ تَجْـحَدُونَ مَقَالَةً عَنْ رَبِّكُم جِبْرِيلُ بَلَّغَهَا النَّبِيَّ فَقَالَهَا

شَـهِدَتْ مِنْ الأنْفَالِ آخِرُ آيَةٍ بِـتُرَاثِهِم فَأرَدْتُمُ إبْطَالَهَا

فهـو هنـا يـدلل علـى أحقيـة العباسـيين بقولـه تعـالى مـن سـورة الأنفـال : (وأولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم)[2]

وغير هذا الشاعر يوجد شعراء كثر قالوا المدائح في العباسيين كبشار، وأبـي نواس ، وأبـي دلامـة ، وسلم الخاسر ، وابـن أبـي السـعلاء ، وعلـي بـن جبلـة ، وعوف بن محلم الخزاعي .

ومع تقدم الزمن قليلاً نلاحظ بعض التطور يطرأ علـى هذا النـوع من مدح الشعراء للخلفاء ، فقد أصبح لكل خليفة شـاعر خـاص بـه لـزم قصـره ، واقتـرن بـه اسـمه ، واشـتهر شـعره فيـه ، مثـل أبـي الطيـب المتنبـي مـع سـيف الدولـة الحمداني ، والبحتري مع المتوكل ، وأبي تمام مع المعتصم .

فمما جاءت به الأخبار عن علاقة سيف الدولة بالمتنبي ؛ أنه أول اتصـاله بـه طلـب أن يعامـل معاملـة تليـق بأشـراف النـاس (واشـترط المتنبـي علـى سـيف الدولـة أول اتصـاله بـه أنـه إذا أنشده مديحـه ؛ لا ينشد إلا وهـو قاعد ، وأنـه لا يكلـف تقبيـل الأرض بين يديـه)[3]. وهذا دليل علـى مـدى احتفـاء الأمير سـيف الدولة بشاعر مثل هذا ، كما كان سـخياً فـي عطايـاه معـه (وقـرر الأمير سـيف الدولة للشاعر جائزة سنوية ؛ ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد كل عام)[4].

وتحولـت هـذه العلاقـة مـن علاقـة شـاعر بـأمير إلـى أعمـق مـن ذلـك ، حيـث رافقه في غزواته ، ورحلات صيده ، وقد وصف الكثير من هذه المواقف في

---

[1] ـ طبقات ابن المعتز ، ص :51 .
[2] ـ سورة الأنفال الآية : 75.
[3] ـ الأدب في عصر العباسيين ، جـ : 2 ، ص :41 .
[4] ـ المرجع السابق ، ص: 43 .

شعره المدحي والطردي ، وازداد الأمر بالمتنبي إلى أن أخذ في عتاب سيف الدولة على بعض مواقفه معه ، مثل إصغائه للحساد والأعداء .

وهذا تطور ملحوظ على نمط القصيدة المدحية ، أو السياسية في هذا العصر ، حيث تحولت من وصف الممدوح بالصفات المعنوية والخلقية ، إلى نوع آخر من الحوار أخذت فيه شخصية الشاعر تطغى على شخصية الممدوح . وكل هذه الملامح المستحدثة التي طرأت على قصيدة المدح ، وعلى غيرها من الأغراض الشعرية في هذا العصر ؛ سوف نقف عندها بشيء من التفصيل في فصل لاحق .

الفصل الثالث

تجلِّيات الحداثة في القصيدة العباسية

المبحث الأول : الاتجاهات الموضوعية (الأغراض)

المبحث الثاني : الاتجاهات الشكلية

1- التجديد في الأغراض الشعرية :

تابع شعراء العصر العباسي سابقيهم من شعراء العربية بالنظم في كافة أغراض الشعر التقليدية كالمدح ، والهجاء ، والرثاء ، والغزل ، كما ألجأتهم طبيعة العصر للنظم في أغراض شعرية مستحدثة ، مثل ما عرف بالشعر التعليمي ، وشعر الزهد ، والمجون ، والغزل الشاذ .

وتناولُ الشعراءِ العباسيين للموضوعات التقليدية لم يكن كتناول السابقين لها بل تصرفوا في هذه الأغراض قدر الإمكان ، مثل قصيدة المدح فبعد أن كان الشاعر قديماً يصبغ على الممدوح صفات عامة مثل الكرم ، والشجاعة والمروءة ، أصبح الشاعر العباسي يناسب بين كل ممدوح وما يناسب شخصيته من معاني المدح ، بمعنى أنه أصبحت هناك مدحية خاصة بالأمراء وأخرى تخص القواد ، وأخر للوزراء والكتاب وغيرهم .

ومن إضافات الشعراء على هذا الفن في هذا العصر ؛ أن هيبة الممدوح لم تعد مسيطرة على الشاعر كما كان في السابق ، بل إن الشاعر قد يدمج شخصيته مع شخصية الممدوح ؛ فيفتخر بنفسه ويعاتب الخليفة أو الأمير ، مثلما يتضح في كثير من قصائد المتنبي مع سيف الدولة الحمداني ؛ فقد ضمن ميميته في مدح سيف الدولة التي مطلعها[1]:

واحَرّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلبُهُ شَبَمُ وَمِمَّنْ بِعَيْنِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمُ

فقد ضمن قصيدته هذه كل هذه الإضافات ، مثل فخره بنفسه في قوله[2]:

سَيَعْلَمَ الجَّمْعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنَا بِأَنَنِي خَيْرُ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَمُ

وقوله أيضاً وهو غاية الاعتداد بالنفس[3]:

فَالخَيلُ واللَيلُ والبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالسَّيفُ وَالرّمْحُ وَالقِرْطَاسُ وَالقَلَمُ

---

[1] - شرح ديوان المتنبي ، ص: 260 .
[2] - السابق ، ص: 260 .
[3] - نفسه ، ص : 261 .

كما قال فيها معاتباً سيف الدولة[1]:

يَا أَعْدَلَ النَّاس إلا فِي مُعَامَلَتِي فِيْكَ الخِصَامُ وَأَنْتَ الخَصمُ وَالحَكَمُ

فتجديد المتنبي وتحطيمه لقواعد المدح المتعارف عليها واضح ، وقد قال الثعالبي عن مذهب المتنبي في المدح : (تفرد به واستكثر من سلوكه اقتداراً منه ، وتبحيراً في الألفاظ والمعاني ، ورفعاً لنفسه عن درجة الشعراء وتدريجاً لها إلى مشابهة الملوك)[2].

ومما أضافه المتنبي إلى غرض المدح أنه (مدح بظاهر اللفظ وهو يقصد الذم ، وخاصة مع كافور الإخشيدي ، وأقحم نفسه مع ممدوحه من بداية القصيدة إلى آخرها ... وكان يخاطب الملوك بمثل مخاطبة المحبوب)[3]. فكل هذه الإضافات تطالعنا في كثير من قصائد المدح عند للمتنبي ، فيدلنا على أن مدح المتنبي لكافور كان فيه ما يشبه الذم ؛ قول المتنبي في إحدى قصائده بعد أن فارق كافور :

وَشِعْرٌ مَدَحْتُ بِهِ الكَرْكَدَ نّ بَيْنَ القَرِيْضِ وَبيْنَ الرُّقَى

فَمَا كَانَ ذَلِكَ مَدْحٌ لَهُ وَلَكِنَّهُ كَانَ هَجْوَ الوَرَى[4]

فكأن في كلام أبي الطيب هذا ندم عما قاله من شعر في مدح كافور .

أما ما قام به من إقحامه لشخصيته في القصيدة المدحية إلى جانب شخص الممدوح ، ونأخذ مثالاً على ذلك إحدى قصائده في مدح سيف الدولة ، وهي التي مطلعها :

لِكُلِّ امْرِئ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا وَعَادَاتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِي العِدَا[5]

فبعد أن أسهب قليلاً في وصف سيف الدولة بالكرم ، وسداد الرأي ، والعفو عند القدرة ، نجده يلتفت إلى نفسه متحدثاً عن طموحاته ، وأنه أصبح

---

[1] ـ نفسه ، ص: 261 .
[2] ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، ص : 191 .
[3] ـ التقليد والتجديد في الشعر العباسي ، ص: 117.
[4] ـ شرح ديوانه ، ص : 19.
[5] ـ ديوانه جـ : 1 ، ص : 281 .

محسوداً على ما أصبغ عليه سيف الدولة من نعم ، كما نجده يأمل من سيف الدولة أن يكفيه حسد الحساد ، فمن كلامه في هذه القصيدة عن نفسه :

إذَا شَدَّ زِنْدِي حُسْنُ رَأيِّكَ فِي يَدِي ضَرَبْتُ بِنَصْلٍ يَقْطَعُ الهَامَ مُغْمَدَا

وَمَا أنَا إلا سَمْهَرِيٌّ حَمَلْتَهُ فَزَيِّن مَعْرُوْضاً وَرَاعَ مُسَدَّدا[1]

كما يتضح اتجاه المتنبي إلى مخاطبة الملوك مخاطبة المحبوب في مثل قوله في إحدى مدائحه لسيف الدولة :

مَالِي أكْتُمُ حُبّاً قَدْ بَرَى جَسَدِي وَتَدَّعِي حُبَّ سِيْف الدُّوْلَةِ الأُمَمُ [2]

كما أن من الأغراض التقليدية التي حور وبدل فيها الشعراء العباسيون غرض الهجاء ، فقد كان الجاهليون يهجون غيرهم بوضاعة النسب ، وضعف القبيلة وعجزها عن الأخذ بالثأر وعن إجارة من يلوذون بها ، كما كان هجاؤهم يدور حول صفات مثل البخل ، والكذب وخيانة العهد ، وقد تمثل تطور غرض الهجاء في العصر الإسلامي في ابتداع فن النقائض .

ومع دخول العصر العباسي يلاحظ تغير أسلوب ومعاني قصيدة الهجاء تبعاً للتطور الفكري والحضاري الذي أصاب هذا العصر ، فشاع الهجاء السياسي والمذهبي ، وتحولت لغة هذا الهجاء إلى السهولة والبساطة ليكون أكثر شعبية ، وأوسع رواجاً . كما أن أهم سمات تطور القصيدة الهجائية في هذا العصر كانت على يدي ابن الرومي شاعر الهجاء الساخر بلا منازع ، فقد كان يعبث بمهجويه عبثاً لاذعاً ، فهو يقف عند نواحي الضعف ويظهرها في أوسع صورة لها ، حتى يثير الضحك تارة والإشفاق تارة أخرى ، وهو يستغل كل ما يمتاز به مهجوه من نقائص جسدية ، أو صوتية ، أو معنوية[3].

وأشهر قصائده التي رسم فيها مهجوه رسماً كاريكاتورياً ساخراً ، قوله في أحدهم [4] :

وَجْهُكَ يَا عَمْرُو فِيْهِ طُوْلٌ وَفِي وُجُوْهِ الكِلابِ طُولُ

---

[1] - المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
[2] - شرح ديوانه ، ص : 206 .
[3] - انظر الفن ومذاهبه ، ص: 213، 214.
[4] - ديوانه ، ص :85 .

وَالكَلْبُ وَافٍ وَفِيْكَ غَدْرٌ فَفِيْكَ عَنْ قَدْرِهِ سُفُوْلُ

وَأَنْتَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ سُوْءٍ قِصَّتُهُمْ قِصَّةٌ تَطُوْلُ

مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعُوْل مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعُوْل

بَيْتٌ كَمَعْنَاكَ لَيْسَ فِيْهِ مَعْنَى سِوَى أَنَّهُ فُضُوْلُ

فهو دقيق وبارع في تصيد أوصاف من يهجوهم ، وقد تكون هذه الأوصاف مختلقة من خيال الشاعر ، وأن المهجو برئ منها براءة تامة ، ولكن المهم هو ملاحظة أن هذا الشاعر أدخل تجديداً على قصيدة الهجاء .

وغرض آخر جدد فيه الشعراء العباسيون ، ربما يكون هو أوسع الأغراض الشعرية انتشاراً منذ الجاهلية ، وهو شعر الغزل ، ولا أدل على أهمية هذا الغرض عند العرب من أنه كان الغرض الأساسي الذي تفتتح به قصائدهم مهما كان غرضها ، اللهم إلا في بعض الأغراض كأن تكون قصيدة في الرثاء .

فقد اتسع فن الغزل في هذا العصر شأنه شأن باقي عصور الأدب ، فاشتهر به جماعة من الشعراء مثل بشار بن برد ، وابن المعتز ، والعباس بن الأحنف الذي قصر شعره - أو كاد - على هذا الغرض ، فلم يمدح أو يهجو[1] ، ولم يكن شعره يتناول موضوعات الغزل التي شاعت في عصره وكثرت مثل الغزل بالمذكر ، وإنما كان غزله عفيفاً على شاكلة قوله :

أتَأذَنُوْنَ لِصَبٍّ فِي زِيَارَتِكُمْ فَعِنْدَكُمُ شَهَوَاتُ السَّمْعِ والبَصَر

لا يُضْمِرُ السُّوءَ إنْ طَالَ الجُلُوْسُ بِهِ عَفُّ الضَّمِيْرِ وَلَكِنْ فَاسِقُ النَّظَر[2]

وقد أُعجب بمعنى بيتي ابن الأحنف هذين الأصمعي ، فعلق عليهما بقوله : (مازال هذا الفتى يدخل يده في جرابه فلا يخرج شيئاً منها ، حتى أدخلها فأخرج هذا ، ومن أدمن طلب شيء ظفر ببعضه)[3].

---

[1] - انظر العمدة جـ:1 ، ص: 119. والأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي ، ص:149 . واتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، ص: 415.

[2] - ديوانه ، ص : 147.

[3] - الأغاني ، جـ : 8 ، ص : 356.

وقد أحدث العباس أيضاً بعض التغيير في موضوع القصيدة الغزلية كإدخاله لبعض المظاهر الحضارية ، مثل تبادل الهدايا والمراسلات بين الشاعر ومحبوبته ، وهي ظاهرة لم تعهد عند شعراء العرب قبل هذا العصر([1]) ، ومن الشواهد على ذلك في شعر العباس قوله :

كَتَبْتُ إِلَى ظَلُوْمٍ فَلَمْ تُجِبْنِي وَقَالَتْ مَا لَهُ عِنْدِي جَوَابُ

فَلَّمَا اسْتَيْأَسَتْ نَفْسِي أَتَانِي وَقَدْ غَفَلَ الوُشَاةُ لَهَا كِتَابُ

كِتَابٌ جَاءَ وَالرُّقَبَاءُ حَوْلِي إِذَا مَا مَرَّ طَّيْرٌ بِي اسْتَرَابُو [2]

كما أن بعض الشعراء العباسيين استعملوا أسلوب الغزل والمحاورة بين المتحابين في غرض المدح ؛ وأكثر ما شاع مثل هذا التوظيف في شعر المتنبي كما سبقت الإشارة قبل هذا الموضع بقليل .

أما التجديد الفعلي في هذا الغرض فقد تمثل في ابتداع الغزل الشاذ أو الغزل بالمذكر ، وقد كان لذلك أسبابه ودوافعه كما سنبين في موضع لاحق من هذا الفصل .

والغرض الشعري الآخر الذي لحقه بعض التغيير في هذا العصر فهو غرض الرثاء ، فمع أن هذا الغرض هو الأقرب إلى نفس الشاعر من أي غرض آخر ؛ إلا أنه كان للتطور الذي أصاب هذا العصر أثر فيه ، يتضح ذلك من ميل بعض الشعراء إلى النظم في الرثاء على البحور القصيرة والخفيفة ، مع أنه أكثر جدية من غيره من الموضوعات ، ومن تجديدهم فيه إكثارهم من رثاء الشباب ، كما رثى بعض الشعراء بصره الذي افتقده إلى غير ذلك من الأعضاء ، وكثر كذلك رثاء الأصدقاء ، والرفقاء ، والزوجات والجدات مثل رثاء المتنبي لجدته ، ومراثي ابن الزيات في زوجته[3] .

---

[1] ـ انظر اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، ص: 416 . والتقليد والتجديد في الشعر العباسي ، ص : 153 .

[2] ـ ديوانه ، ص : 17 .

[3] ـ انظر العصر العباسي الأول ، ص: 173.

وقد اتسمت معاني الرثاء في كل ذلك بالجدة والطرافة ، مما يمثل غزارة وثراء العقل العباسي فكرياً ، وقدرته على صياغة مثل هذه المواقف صياغة مغايرة .

وجاء اتساع إطار هذا الفن في هذا العصر ليفرز نوعاً جديداً منه ، كان ضرورة أوجبتها ظروف العصر حضارياً وفكرياً ؛ وهو رثاء غير الإنسان ، حيث رثى الشعراء العباسون أشياء لم يعرها السابقون أي اهتمام ، أو ربما رثيت ولكن بقدر قليل إذا ما قيس ذلك بهذا العصر ، ومما رثاه الشعراء في هذا العصر من غير الإنسان نجد : المدن والدول ، وأعضاء الجسم والحيوانات[1].

أما رثاء الإنسان في هذا العصر فقد كثر فيه تناول الحكم ، والدعوة إلى الموعظة ؛ ولم يكثر الشعراء فيه من الوقوف عند شخص المرثي وتعداد مناقبه ، بل كانت أكثر أجزاء القصيدة تدور حول نكبات الدهر وحدثانه ، كما شاع وكثر في المرثية عند الشاعر العباسي الأسلوب الفلسفي مثلما هو موجود في إحدى قصائد أبي العلاء المعري ، وهي قصيدته في رثاء القاضي التنوخي[2] ، ومما قاله فيها[3] :

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي نَـوْحُ بَـاكٍ وَلا تَرَنُّمِ شَـادِي
وَشَبِيْهٌ صَوْتُ النَّعِيّ إذَا قِيْـ سَ بِصَوْتِ البَشِيرِ فِي كُلِّ نَادِي
خَفْفّ الوَطْء مَا أظُنُ أدِيْمَ الـ أرْض إلا مِنْ هَذِهِ الأجْسَادِ

وفيها يقول أيضاً[4] :

سِرْ إنْ اسْتَطَعْتَ رُوَيْدًا لا اخْتِيَالاً عَلَى رُفَاتِ العِبَادِ
رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْداً مِرَاراً ضَاحِكٌ مِنْ تَزَاحُمِ الأضْدَادِ
ودَفِيْن عَلَى بَقَايَا دَفِيْنٍ فِي طَوِيْلِ الأزْمَانِ والآبَادِ

---

[1] ـ انظر رثاء غير الإنسان في الشعر العباسي ، ص: 20 وما بعدها.
[2] ـ القاضي التنوخي: 355 ، 447 هـ ، هو علي بن المحسن بن علي أبو القاسم التنوخي، قاض من علماء المعتزلة ، تقلد القضاء في عدة نواح منها: المدائن وقرميسين. انظر الأعلام للزركلي ، جـ: 4، ص: 323.
[3] ـ تاريخ الأدب العربي ، عمرو فروخ ، جـ : 3 ، ص: 127.
[4] ـ السابق ، الصفحة نفسها.

فلم يُفرِّغ الشاعر ما أصابه من الحزن والأسى ؛ بالبكاء على شخص الفقيد بكاءً مباشراً ، لكنه أخرجه في تأملاته الفلسفية العميقة عن الحياة والموت .

وسيتم الحديث فيما يأتي عن بعض الأغراض الشعرية لهذا العصر سواء أكانت أغراضاً مستحدثة ، أم أغراضاً قديمة ولكنه أصابها بعض التجديد .

الشعر التعليمي :

عرف هذا الغرض الشعري منذ أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني الهجري ، فقد كانت هذه الفترة فترة جمع العلوم والمعارف المختلفة ، بعد أن شجع العباسيون العلماء على التدوين ، والتأليف ، والترجمة ، فوضعت تفاسير القرآن وجمع الحديث ، ودونت أشعار العرب ، وألفت كتب أدبية وتاريخية على أيدي علماء أفذاذ مثل : الجاحظ ، وابن قتيبة ، والخليل بن أحمد .

وكان اهتمام الناس في هذا العصر يتجه نحو تعليم الأبناء في الكتاتيب ، أو في حلقات الدرس في المساجد ، ومع اتساع هذه النهضة العلمية الفكرية عمد بعض الشعراء إلى نظم بعض الأخبار ، والمعارف ، والسير حتى يسهل على الدارس حفظها ، وهذا ما عرف فيما بعد بالمتون ، ومثل هذا الشعر لا يهتم الشاعر فيه بتصوير الحالات النفسية والشعورية ؛ إنما وضع لغرض التعليم والتعلم فقط .

وهذا الغرض الشعري غرض محدث على ساحة الشعر ، لم تعرف له أصول قديمة في الشعر العربي ، بل هو من أبرز أشكال التجديد التي طرأت على موضوعات الشعر في هذا العصر ، وقد اختلفت أقوال الدارسين حول ما إذا كانت نشأة هذا الغرض عربية خالصة ، أم أنه نشأ نتيجة تأثيرات أجنبية . فالدكتور شوقي ضيف يرى أن هذا الغرض نشأ نشأة عربية خالصة منذ العصر الأموي ، واستشهد له بأراجيز رؤبة والعجاج اللغوية[1] ، غير أن الدكتور محمد مصطفى هدَّارة يرد هذا الرأي ، ويرى أنه لا يجب إدخال أراجيز رؤبة وأمثاله ضمن الشعر التعليمي بالمعنى المفهوم من ذلك الشعر الذي يتوجه إلى المتعلمين ؛ ليسهل عليهم حفظ أنواع شتى من المعارف ، والعلوم عن طريق النظم ، ذلك لأن تلك الأراجيز اللغوية إنما وضعت من أجل علماء اللغة أنفسهم ليلتقطوا منها ما لا يعرفونه من الغريب[2].

ويرى آخرون أن هذا الفن نشأ نتيجة تأثيرات ثقافات أجنبية ، فقد عرف عن شعراء اليونان في القرن الثامن قبل الميلاد نظم قصائد قيدت فيها طائفة

---

[1] ـ انظر التطور والتجديد في الشعر الأموي ، ص : 84 .
[2] ـ انظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص : 356 .

مما كان اليونان يرونه علماً في ذلك الوقت[1] ، ويرى الأستاذ أحمد أمين أنه ربما تكون نشأته نتيجة التأثر بالثقافة الهندية ، فقد كان لديهم اهتمام بهذا الفن ، حتى إن البيروني اشتكى من نظمهم لقواعد الرياضة والفلك ، لأن ذلك يخرجهم أحياناً عن ضبط القواعد ، وما تستلزمه من دقة في التعبير[2]. ولا أعتقد أنه يمكن إبعاد تأثير الثقافات الوافدة عن الأسباب التي أدت إلى ظهور هذا الفن في الشعر العربي .

ويعد الدارسون أبان بن عبد الحميد اللاحقي[3] رائد هذا الغرض في الشعر العربي ، فقد نظم فيه تاريخاً ، وفقهاً ، وقصصاً كثيراً[4] ، ومن منظومات هذا الشاعر في هذا الغرض مزدوجته التي شرح فيها أحكام الصوم والزكاة ، ومنها قوله[5] :

هَذَا كِتَابُ الصَّومِ وَهُوَ جَامِعُ لِكُلِّ مَا قَامَتْ بِهِ الشَّرَائِعُ
مِنْ ذَلِكَ المُنْزَلِ فِي القُرْآنِ فَضْلاً عَلَى مَا كَانَ ذَا بَيَانِ
وَمِنْهُ مَا جَاءَ عَنْ النَّبِيِّ مِنْ عَهْدِهِ المُتَّبَعِ المَرْضِيِّ
صَلَّى الإلَهُ وَعَلَيْهِ سَلَّمَا كَمَا هَدَى اللهُ بِهِ وِعَلَّمَا

وقد نظم أبان أيضاً في القصص كتاب كليلة ودمنة في أربعة عشر ألف بيت استهلها بقوله [6] :

هَذَا كِتَابُ أدَبٍ وَمِحْنَة وَهُوَ الَّذِي يُدْعَى كَلِيلَة وَدِمْنَة
فِيْهِ دِلالاتٌ وَفِيهِ رُشْدُ وَهُوَ كِتَابٌ أَلَّفَتْهُ الهِنْدُ

وممن نهج النهج التعليمي في شعره أبو العتاهية ، الذي وقف في كثير من شعره موقف المعلم من تلاميذه ، مثال ذلك أرجوزته المسماة ذات الأمثال ، التي من كلامه فيه[1] :

---

[1] ـ انظر المرجع السابق ، ص: 371. و حديث الأربعاء ، جـ : 2 ، ص : 220 .
[2] ـ انظر ضحى الإسلام ، جـ :1 ، ص : 258.
[3] ـ أبان اللا حقي ، ت: 200 هـ ، هو: أبان بن عبد الحميد بن لاحق بن عفير الرقاشي، شاعر مكثر من أهل البصرة ، كان أكثر شعره في البرامكة ، كما كان أديباً وعالماً منطقياً ، صنف كتباً في حكم الهند ، له أراجيز طوال في الصوم والصلاة ، كما كانت له بعض الرسائل. انظر الأعلام ، جـ: 1، ص: 27 .
[4] ـ انظر العصر العباسي الأول ، ص: 190.
[5] ـ الأوراق للصولي ، قسم أخبار الشعراء ، ص : 51 .
[6] ـ طبقات ابن المعتز ، ص: 240.

مَا انْتَفَعَ المَرْءُ بِمِثْلِ عَــقْلِهِ وَخَيْرُ ذِخْرِ المَرْءِ حُسْنُ فِعْلِهِ

إنَّ الشَّــبَابَ وَالفَرَاغَ وَالـجِدَه مَفْــسَدَةٌ لِلْعَقْلِ أيَّ مَفْسَدَه

أصْحَبْ ذَوِي الفَـضْلِ وَأهْلَ الدِّيْنِ فَالمَـرْءُ مَنْسُوْبٌ إلَى القَرِيْنِ

إيَّـاكَ والغِيْبَة وَالنَـمِـيْمَة فَإنَّـهَـا مَـنْزِلَةٌ وَخِيْمَـة

لا تَذْهَبَنَّ فِي الأمُوْرِ فَـرَطَا لا تَسْــأَلَنَّ إنْ سَألْتَ شَطَطَا

وَكُنْ مِنَ النَّاسِ جَمِيْعاً وَسَطَا

وإن كان فيما ذكرته من شواهد بروز واضح للحكمة ، والوعظ ، والإرشاد ، فإن هذا لا يبتعد عن أمر التعليم بل هو شديد التعلق به ،

و من الأمثلة على الشعر التعليمي البحت أيضاً (ملحة الإعراب) للحريري في النحو التي قال فيها[2]:

هَذَا وَإنْ فِي الشَّرْطِ وَالجَزَاءِ تَجزِمَ فِعْلَيْنِ بِلا امْــتِرَاء

وأخْتُهَا أي وَمَنْ وَمَـهْمَا وَحَيْثُمَا أيْضاً وإذْ وإذْمَــا

وأيْن مِنْهُنَ وأنَّى وَمَتَى فَاحْفَظْ جَمِيعَ الأدَوَاتِ يَا فَتَى

والملاحظة التي تجب الإشارة إليها هي أن غالبية الشعر التعليمي نظم على بحر الرجز ، ولعل السبب وراء ذلك راجع إلى خفة هذا البحر ، فالغرض من الشعر التعليمي هو تسهيل عملية حفظ العلوم ، والمعارف على المتعلمين ، وليس أنسب لهذه العملية من النظم على بحر الرجز ، كما أن في هذا البحر من المرونة والقدرة على استيعاب الزحافات والعلل ؛ ما لا يتوافر في غيره من بحور الشعر .

ولم يلتزم الشعراء في الشعر التعليمي قافية موحدة على طول القصيدة ، بل تحرروا منها كثيراً كما هو واضح في الشواهد السابقة .

وهكذا فهذا الغرض الشعري كان تجديداً خالصاً ؛ دعا إلى وجوده انتشار حركة التعليم ، وتمازج الثقافات ، وترجمة المعارف ، والعلوم الأجنبية .

---

[1] ـ ديوانه ، ص : 388 .

[2] ـ تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني ، ص:350.

شعر الوصف :

غرض شعري قديم ، وهو من أهم الأغراض التي طغت على الشعر العربي منذ الجاهلية ، لهذا قال ابن رشيق (الشعر - إلا أقله - راجع إلى باب الوصف ، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه)[1].

قد وصف الجاهليون كل ما أحاط بهم من مظاهر الحياة ، في بيئتهم الصحراوية ، فاشتهر كل شاعر من القدامى بوصف شيء ما مثل اشتهار

[1] ـ العمدة ، جـ : 2 ، ص: 294.

امرئ القيس بوصف الخيل ، وطرفة بن العبد بوصف الإبل ، وكان الشمَّاخ ابن ضرار من أوصف الناس للحُمُر الوحشية ، أما الخمر فمن أبرز وصافها الأعشى[1] ، وكان ذو الرمة من أوصف الناس لرمل ، وهاجرة ، وفلاة ، وقراد ، وحية[2]

وهكذا فغرض الوصف كان معروفاً عند العرب ؛ ولكنه كان يتناول كل ما يتصل بحياة البادية من صحارى ، ومفازات ، وحيوان بري ، وأطلال دارسة ، أما المستحدث في هذا الفن في العصر العباسي ؛ فهو وصف مباهج الحضارة الجديدة ، كوصف الشعراء للقصور ، والجسور ، والرياض ، والمتنزهات والسفن ، وأنواع الألعاب ، وحلبات السباق ، ومختلف المناسبات الاجتماعية كالأعياد ، والمهرجانات ، كما تناولوا بالوصف أصناف الأطعمة والأشربة ، وأدوات الثقافة والفكر كالكتب ، والأقلام ، فكل هذه الأشياء طارئة على الحياة العربية في هذا العصر .

ويمكن تقسيم شعر الوصف في هذا العصر إلى قسمين هما: ـ وصف الطبيعة .

ـ وصف مظاهر الحضارة .

1 ـ وصف الطبيعة :

موضوع عالجه الشعر القديم ، ولكن كانت تغلب عليه النزعة الحسية الضيقة ، مثل اهتمام الشعراء بوصف المفاوز ، والقفار ، والرحلة الشاقة عبر الصحراء ، وقد كان هذا الغرض عادة ما يأتي مقترناً بغيره من الأغراض ، أما في العصر العباسي فقد طالت هذا الفن لمسات المجددين ، حيث أتيح في هذا العصر للشاعر العربي أن يشهد من المناظر المبهجة الخلابة ما أسعفه لأن يجعل من هذا الفن غرضاً مستقلاً يلقى من الشاعر كل عناية واهتمام ،

[1] ـ المصدر السابق ، ص: 297.
[2] ـ الشعر والشعراء ، ص : 356.

حتى بدأنا نلحظ - وبكثرة - وجود القصائد ، والمقطوعات الشعرية التي أفردت لوصف روضة ، أو بستان وتناول ما تناثر فيهما من أنواع الزهور بالوصف ، وهو وصف رقيق عذب ، وذلك كقول علي بن الجهم[1] يصف ورداً [2] :

لَمْ يَضْحَكِ الوَرْدُ إلا حِيْنَ أعْجَبَهُ حُسْنُ الرَّيَاضِ وَصَوْتُ الطَّائر الغَرِدِ
بَدَا فَأبْدَتْ لَنَا الدُّنْيَا مَحَاسِنَهَا وَرَاحَتْ الرَّاحُ فِي أثْوَابِهَا الجُدُدِ
وَقَابَلَتْهُ يَدُ المُشْتَاق تَسْنِدُهُ إلَى التَّرَائِبِ والأحْشَاءِ وَالكَبِدِ
مَا قَابَلَتْ طَلْعَةُ الرَّيْحَان طَلْعَتَهُ إلا تَبَيَّنَتَ فَيْهِ ذِلَّةُ الحَسَدِ

وللبحتري في وصف الرياض آثار بارعة تشهد بدقة ملاحظته وخصوبة مخيلته مثل قوله [3] :

وَلا زَالَ مُخْضَرٌّ مَنْ الرَّوْضِ يَانِعٌ عَلَيْهِ بِمُحْمَرٍّ مِنْ النُّوْرِ جَاسِد
يُذَكِّرُنَا رَيَّا الأحِبة كُلَّمَا تَنَفَّسَ فِي جُنْحٍ مِنْ اللَّيْلِ بَارِد

وله أيضاً قصيدة بارعة في وصف الربيع ، حيث صوره يختال ضاحكاً فتياً ، وقد سبقه النوروز ليوقظ له الورود النائمة ومنها قوله [4] :

أتَاكَ الرَّبِيْعُ الطَّلْقُ يَخْتَالُ ضَاحِكاً مِنْ الحُسْنِ حَتَّى كَادَ أنْ يَتَكَلَّمَا
وَقَدْ نَبَّه النُّورُوْز فِي غَلَسِ الدُّجَى أوَائِلَ وَرْدٍ كُنَّ بِالأمْسِ نُوَّمَا

كما نجد ابن الرومي تلهيه روضة عن وصف الأطلال ، وهي روضة عذراء تلبس حلة أنيقة مختلفة الألوان والأشكال وذلك في قوله :

لَهَوْتُ عَنْ وَصْفِ الطُّلُوْلِ الدَّارِسَة بِرَوْضَةٍ عَذْرَاءَ غَيْرُ نَاعِسَة
جَادَتْ لَهَا كُلُّ سَمَاءٍ رَاجِسَة رَائِحَةٌ بِالغَيْبِ أوْ مُغَالِسَة
فَأصْبَحَتْ مِنْ كُلِّ وَشْيٍّ لابِسَة خَضْرَاء مَا فِيْهَا خَلاءٌ يَابِسَة
ضَاحِكَةُ النُّوَارِ غَيْرُ عَابِسَة فِيْهَا شُمُوسٌ لِلْبَهَارِ وَارِسَة[1]

---

[1] ـ علي بن الجهم ، ت:249، هو علي بن الجهم بن بدر من بني سامة من لؤي بن غالب، شاعر مفلق مطبوع يضع لسانه حيث يشاء ، كان هجاء أولع بهجاء آل طاهر ، كما أن له شعراً رقيقاً ، كان معاصراً لأبي تمام ، وقد خص بالمتوكل العباسي، ثم غضب عليه المتوكل ونفاه إلى خراسان. انظر طبقات ابن المعتز، ص: 319. والأعلام ،جـ:4 ، ص : 230 .
[2] ـ الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي ، جـ : 2 ، ص : 177 .
[3] ـ ديوانه ، جـ : 1 ، ص :121 .
[4] ـ ديوانه ص : 2090 .

وما أن نصل إلى القرن الرابع الهجري حتى نجد أحد الشعراء ينبغ ويتفرد في مجال وصف الطبيعة ، وهو الصنوبري[2] ، الذي كان من أبرز المجددين فيه في هذا العصر ، وقد نسب القدماء إليه وصف الطبيعة حين أطلقوا على فنه فيها نعت (روضيات الصنوبري) [3]، وقد دعا الصنوبري أولاً إلى افتتاح القصائد بوصف الرياض بدل صفة الأطلال فقال [4] :

وَصْفُ الرِّيَاضِ كَفَانِي أنْ أقِيْمَ عَلَى وَصْفِ الطُّلُوْلِ فَهَلْ فِي ذَاكَ مِنْ بَاسِ يَا
وَاصِفَ الرَّوْضِ مَشْغُوْلاً بِذَلِكَ عَنْ مَنَازِل أوْحَشَتْ مِنْ بَعْدِ إيْنَاسِ
قُلْ لِّلَذِي لامَ فِيْهِ هَلْ تَرَى كَلِفًا بِأمْلَحِ الرُّوْضِ إلا أمْلَحَ النَّاسِ

ومن تجديده في هذا المجال تشبيهه عيون الحسان بورود النرجس ، لا بعيون المها والظباء كما عُهد عند الشاعر القديم ، فقال [5] :

أرَأيْتَ أحْسَنَ مِنْ عُيُوْنِ النَّرْجِس أوْ مِنْ تَلاحُظِهِنَّ وَسْطَ المَجْلِسْ

وغير هذه التشبيهات والصور في شعر الصنوبري شيء كثير ، مما جعله الشاعر المبرز في مجال وصف الطبيعة ، وقد ذهب أحد الدارسين المحدثين إلى أن كل من جاء بعد الصنوبري من الشعراء الذين قالوا أشعاراً في وصف الطبيعة ؛ كانوا عيّالاً على الصنوبري في وصفها ، لأنه هو الذي اختط لهم ، ولمن بعدهم الطريق الذي سلكوه فيه [6].

كانت هذه إشارة إلى بعض ما أضافه الشعراء العباسيون إلى شعر وصف الطبيعة ، وسننتقل إلى الحديث عن القسم الآخر من شعر الوصف .

---

[1] ـ ديوانه ، ص: 83.
[2] ـ الصنوبري 334 هـ ، هو أبو بكر أحمد بن محمد بن حسن الضبي ، من شعراء حلب المعروفين بوصف الطبيعة، ولد بحلب وتنقل في بعض بلاد الشام والجزيرة الفراتية وأقام زمناً في مدينة الرها. انظر معجم الأدباء ، جـ:1، ص : 425 .
[3] ـ تطور الشعر في بلاد الشام في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، ص : 232 .
[4] ـ ديوانه ، ص : 181 .
[5] ـ المرجع السابق ، ص:121.
[6] ـ انظر تطور الشعر في بلاد الشام في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، ص: 236.

2 ـ وصف مظاهر الحضارة :

تعرّف العصر العباسي على أنماط متباينة من الحضارات المجاورة ؛ فعرف العرب في هذا العصر بناء القصور وما يُلحق بها من البرك والمتنزهات ، كما عرفوا الجسور ، وعرف هذا العصر من وسائل النقل السفينة بشكل أوسع من ذي قبل ، كما عرفوا أصنافاً لا حصر لها من الأطعمة الأجنبية ، وأنواعاً مختلفة من الألعاب ، وكل هذه الأشياء استوعبها شعر هذا العصر ، وأفاض في وصفها شعراؤه ، وهي جوانب تمثل ما حظي به المجتمع العباسي من رقي وتقدم ، وتبين من جهة أخرى مدى استعداد الشاعر ، وقدرته على ترجمة هذا التقدم في شعره .

وأول ما وصف من هذه المظاهر الحضارية نجد وصفهم للقصور ، التي كان لوصفها في الشعر العباسي باباً واسعاً ؛ وهو ما اصطلح عليه فيما بعد (بالداريات) فوصف الشاعر العباسي هذه القصور ومواقعها ، وقدر ما افتن الخلفاء في تشييدها ، وما حظيت به من العناية ، والزخرف ، ومن ذلك قول ابن أبي عيينة [1] :

فَيَا حُسْنَ ذَاكَ القَصْر قصراً وَنُزْهَة بِأفْيَح سَهْلٍ غَيْر وَعْرٍ وَلا ضَنِكِ
بِغَرْسٍ كَأبْكَارِ الجَوَارِي وَتربة كَأنَّ ثَرَاهَا مَاءُ وَرْدٍ عَلَى مِسْكِ
كَأنَّ قُصُورَ الأرْض يَنْظُرْنَ حَوْلَهُ إلَى مَلِكٍ مُوْفٍ عَلَى مِنْبَرِ المُلْكِ
يُدِلُّ عَلَيْهَا مُسْتَطِيْلاً بِحُسْنِهِ وَيَضْحَكُ مِنْهَا وَهِي مُطْرِقَةٌ تَبْكِي

ومثل ذلك وصف ابن المعتز لقصر الثريا بشرفاته العالية ، وجداوله التي تفجرت مياهها ، وساحته التي أعدت لسباق الخيل [2] :

وَبُنْيَانُ قَصْرٍ قَدْ عَلَتْ شُرُفَاتُهُ كَصَفِّ نِسَاءٍ قَدْ تَرَبَّعْنَ فِي الأزْرِ
وَأنْهَارُ مَاءٍ كَالسَلاسِلِ فُجِّرَتْ لِتُرضِعَ أوْلادَ الرَّيَاحِيْنِ وَالزَهْرِ
وَمَيْدَانُ وَحْشٍ تَرْكُضُ الخَيْلُ فَوْقَهُ فَيُؤخَذُ مِنْهَا مَا يُشَاءُ عَلَى قَدْرِ

وكذلك مما وصف في الشعر العباسي برك المياه ، التي قد تُلحق عادة بالقصور ، وأشهر ما يمثل ذلك ما قام به البحتري من وصفه لبركة في قصر المتوكل ، ومن كلامه فيها [3] :

يَا مَنْ رَأى البِرْكَةَ الحَسْنَاءَ رُؤيَتَهَا وَالآنِسَاتِ إذَا لاحَتْ مَغَانِيْهَا
بحَسْبُهَا أنَّهَا مِنْ فَضْلِ رُتْبَتِهَا تُعَدُّ واحِدَةً وَالبَحْرُ ثَانِيْهَا

فهي بركة غاية في الفن والروعة ، سبقت البحر بجمالها ، ودجلة تغار من حسنها ، حتى لتتخيل أنها ليست من صنع بشر بل من صنع الجن .

ومما وصف أيضاً نجد الجسور ، وقد أبدع الشعراء في وصفها ، يقول علي بن الفرج [4] :

---

[1] ـ انظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص: 481.نقلاً عن عيون الأخبار ، جـ : 1 ، ص: 222 .
[2] ـ ديوانه ، ص : 299 .
[3] ـ ديوانه ، جـ : 4 ، ص : 2416 .
[4] ـ اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص:483. نقلاً عن تاريخ بغداد ، جـ :1 ، ص : 116 .

أَيَا حَبَّذَا جِسْرٌ عَلَى نَهْرِ دِجْلَةٍ بِإتْقَانِ تَأسِيسٍ وَحُـسْنٍ وَرَوْنَقِ
جَمَالٌ وَفَخْرٌ لِلْعِرَاقِ وَنُزْهَةٌ وَسَلْوَةُ مَنْ أضْنَاهُ فَـرْطُ التَّشَوُّقِ
تَرَاهُ إذَا مَا جِـئتَهُ مُتَأمِّلاً كسَطْرِ عَبِيْرٍ خُطَّ فِي وَسْطِ مُهْرَقِ

وكما قام الشعراء بوصف القصور والبرك والجسور ، وصفوا من المظاهر الحضارية السفن ، مثل وصف بشار الذي قال فيه [1] :

وَمَلْعَب الـنُّوْنِ يُرَى بَطْـنُهُ مِـنْ ظَهْرِهِ أخْضَـرٌ مُسْتَصْعَبِ
عَطْشَان إنْ تَأخُذ عَلَيْهِ الصَّبَا يَفْحُشْ عَلَى البُوْصِي أوْ يَصْخَب
كَأنَّ أصْـوَاتاً بِـأرْجَـائِهِ مِنْ جُنْدُبٍ قَـاصٍ إلَى جُنْـدُب رَكِبَـتْ
فِي أهْـوَالِـهِ ثَيِّباً رُكِـبَتْ أوْ عَذْرَاء لَمْ تُرْكَب
لا تَشْتَكِي الحينَ إذَا مَا انْتَحَتْ تُهْدَى بِهَـادٍ بَعْدَ القُـلَّـبَ

وكذلك وصف الحسين بن الضحاك سفينة في نهر دجلة ، منها قوله[2]:

مُـبَارَكَـةٌ شَـادَ بُنْـيَانَهَا بِخَـيْرِ المَوَاطِـن خَـيْرُ الأمَم
كَظَهْرِ الأدِيْمِ إذَا مَا السَّحـ ـابُ صَابَ عَلَى مَتْـنِهَا وَانْسَجَم

يضاف إلى هذا وصف العباسيين لأدوات الفكر والثقافة من أقلام وكتب ، فمن وصفهم للكتب قول العتّابي ، وهو من أروع ما قيل فيها من وصف [3]:

لَـنَا نُدَمَـاءٌ لا نَمَـلّ حَدِيْثَهُمْ أمِيْنُوْنَ مَأمُوْنُونَ غَيْباً وَمَشْهَدَا
يُفِيْدُوْنَنَا مِنْ عِلْمِهِمْ عِلْمَ مَا مَضَى وَرَأيـاً وَتَأدِيْـباً وَأمْراً مُسَدَّدا
بِلا عِلَّةٍ تُخْشَى وَلا خَوْفَ رِيْبَةٍ وَلا نَتَّـقِي مِنْهُمْ بَنَـاناً وَلا يَدَا
فَإنْ قُلَتْ هُمْ أحْيَاءَ لَسْتَ بِكَاذِبٍ وإنْ قُلْتَ هُمْ مَوْتَى فَلَسْتَ مُفَنَّدَا

ومن وصفهم الأقلام ما قاله أبو عبد الله محمد بن إبراهيم التاجر الوزير الخوارزمي ، فقد قال في صفة القلم [4] :

نَاطِقٌ سَاكِـبٌ أصَـمٌّ سَـمِيْعُ قَلِـقٌ سَـاكِنٌ وَقُـوْف مَـاضِي
نَاحِلُ الجِسْم نابه الاسمِ مُنَقًّى ال وَسْـمِ فِي كُلِّ عَانِدِ ذِي اعْتِرَاضِ

---

1 ـ ديوانه ، جـ :1 ، ص : 147، 148 .
2 ـ الأغاني ، جـ :7 ، ص: 152 .
3 ـ الفهرست ، ص : 16 .
4 ـ اليتيمة ، جـ : 4 ، ص : 244 .

كما تعرض أبو تمام ، الذي تعود الإغراب في وصف الأشياء لوصف القلم فأبدع وأجاد حين قال فيه [1] :

لُعَابُ الأفَاعِي القَاتِلاتِ لُعَابُهُ وأرِيُّ الجَنَى اشْتَارَتْهُ أيْدٍ عَوَاسِلُ

لَهُ رِيْقَةٌ طَلٌّ ولكَنَّ وَقْعَهَا بِآثَارِهِ فِي الشَّرْقِ وَالغَرْبِ وابِلُ

فَصِيْحٌ إذَا اسْتَنْطَقْتَهُ وَهُو رَاكِبٌ وأعْجَمُ إنْ خَاطَبْتَه وَهُوَ رَاجِلُ

إذَا مَا امْتَطَى الخَمْسَ اللِطَافَ وَأفْرِغَتْ عَلَيْهِ شِعَابُ الفِكْرِ وَهِي حَوَافِلُ

أطَاعَتْه أطْرَافُ القَنَا وَتَقَوَّضَتْ لنَجْوَاه تَقْوِيْضَ الخِيَامَ الجَحَافِلُ

إذَا اسْتَغْزَرَ الذِّهْنَ الذَّكِيَّ وأقْبَلَتْ أعَالِيْهِ فِي القِرْطَاسِ وَهِي أسَافِلُ

وهكذا نرى أن شعر الوصف في هذا العصر قد ظهر في ثوب جديد ؛ بما ابتدعه فيه شعراؤه من ألوان متعددة ، فقد تعرضوا لوصف الأشياء وصفاً رقيقاً ، مثل إكثارهم من وصف الرياض والجنان بدل القفار والوحوش ، كما أنهم أكثروا من وصف ما برز في عصرهم من مظاهر حضارية متعددة ، فمثلوا بذلك كله حياة عصرهم أحسن تمثيل .

شعر الطرد:

شعر الطرد باب معروف في الشعر العربي ، وهو في عمومه لا يخرج عن غرض الوصف ، فقد اعتاد الشاعر العربي منذ الجاهلية ، أن يصف رحلته عبر الصحراء ، هذه الرحلة التي لابد له من القيام فيها بالصيد ، فكثير من شعراء الجاهلية وصف في شعره مطاردة كلابه لحمر الوحش ، والظباء والطيور ، وقد كان هذا الوصف جزءاً من القصيدة التي قد تنتقل بعد ذلك إلى النسيب ، أو الفخر ثم الهجاء ، أو المدح ، إلى غير ذلك من الموضوعات التي كانت تتضمنها القصيدة الواحدة في تلك الفترة .

وبعد ظهور الإسلام نجد الشعراء ينشغلون عن وصف الرحلة أو النسيب بموضوعات أهم ، إلى أن نصل إلى العصر الأموي الذي اعتاد فيه الناس الصيد ولكن بشكل محدود ؛ مقارنة بالعصر العباسي الذي كان شغل جلِّ

[1] - ديوانه ، جـ : 3 ص : 123 .

الناس فيه هو البحث عمّا يقتلون به أوقات فراغهم ، ومن هنا كان المجال واسعاً لانتشار هواية الصيد ، ولا سيما بين ذوي المناصب والجاه. فكان أفراد هذه الطبقات المترفة يخرجون للصيد في جماعات صغيرة قد يكون على رأس الواحدة منها أمير ، أو وزير ، أو قائد ، وقد يكون الخليفة نفسه ، ويصحب هذه الجماعة بلا شك أحد الشعراء [1] .

ومن هنا اتسع المجال أمام هذا الغرض ؛ وافتن الشاعر العباسي في وصف هذه الرحلات ، وكيف كانت تفتك الكلاب ، والشواهين ، والفهود بالطرائد . كما وصف الشاعر العباسي الحيوانات المطرودة من أرانب ، وظباء ، ومختلف أنواع الطيور ، وكانت النتيجة أن ترك هؤلاء الشعراء نتاجا شعرياً غزيراً في هذا الباب.

وقد أجمع أكثر من دارس على أن أبا نواس هو زعيم هذا الفن ، بل لعله هو أول من اتخذه فناً مستقلاً من فنون الشعر ، فنظم فيه القصائد فضلاً عن المقطوعات[2] وله نحو الخمسين طردية في ديوانه .

ومن أكثر ما يلاحظ اهتمام أبي نواس به في هذا الموضوع ؛ إكثاره من وصف كلاب الصيد دون غيرها ، فقد استنفد في شعره الطردي كل صفاتها فلم يغادر منها شيئاً [3] . فهو على سبيل المثال يصف متونها الطويلة المنسابة ومخالبها الحادة فيقول [4]:

هِجْنَا بِكَلْبٍ طَالَمَا هِجْنَا بِهِ
كَأَنَّ مَتْنَيْه لَدَى انْسِلابِهِ
مَتْنَا شُجَاعٍ لَجَّ فِي انْسِيَابِهِ
كَأَنَّمَا الأَظْفُور فِي قَنَابِهِ
مُوْسَي صَنَّاعٍ رُدَّ فِي نِصَابِهَ

[1] ـ انظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص : 494 .
[2] ـ انظر حديث الأربعاء ، جـ :2،ص: 137. والعصر العباسي الأول ، ص:486. واتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص: 496. وأبو نواس الحسن بن هاني ، ص : 158 .
[3] ـ انظر الحيوان ، جـ : 3، ص : 27.
[4] ـ ديوانه، ص:124.

كما وصف منها في موضع آخر ، نظرها الثاقب ، وآذانها الطويلة ، وألوانها المتعددة فقال [1] :

بِأكْلُبٍ غُضْفٍ صَحِيحَاتِ الحَدَق
مِنْ أصْفَرِ اللوْنِ ومِبْيَضٍّ يَقَق
لَوْ يُلْصَقُ الخَدُّ بِأذْنٍ لالْتَصَق

وممن أفاض في هذا الفن غير أبي نواس ، الأمير الشاعر عبد الله بن المعتز ، الذي اشتهر بالصيد والطرد شهرة أبي نواس ، وطرديات ابن المعتز هي الباب السابع من ديوانه ، وفيها كثير من الصور البيانية الجميلة والتشبيهات الرائعة الساحرة ؛ مما يدل على تمكنه من هذا الفن[2]، فهاهوذا - على سبيل المثال - يقول في وصف كلبة الصيد [3] :

لَمَّا تَعَرَّى أفُقُ الضِّيَاءِ مِثْل ابْتِسَامِ الشَّفَة اللَّمْيَاءِ
وَشَمَطَتْ ذَوَائِبُ الظَّلْمَاء قُدْنَا لِعِيْنِ الوَحْشِ والظِّبَاء
دَاهِيةً مَحْذُوْرَة اللقَاءِ تَحْمِلُهَا أجْنِحَةُ الهَوَاءِ
أسْرَعُ مِنْ جَفْنٍ إلَى إغْضَاءِ وَمَخْطَفاً مُوَثّق الأعْضَاءِ
بِأُذُنٍ سَاقِطَةُ الأرْجَاءِ كَوَرْدَةِ السَوْسَنَةِ الشَّهْلاءِ
ذَا بُرْثَنٍ كَمِثْقَبِ الحِذَاءِ وَمُقْلَة قَلِيْلَة الأقْذَاءِ
صَافِيَةُ كَقَطْرَةٍ مِنْ مَاءِ

ومن الشعراء الذين خاضوا في هذا الغرض وجددوا في نهجه ، المتنبي الذي خالف سنن سابقيه في هذا الفن ، فقد افتتح المتنبي طرديته مفتخراً بنفسه ، ولم يفتتحها بوصف حيوانات الصيد ، كما رأينا عند أبي نواس ، وابن المعتز ، فهو في افتتاحه إحدى طردياته يفتخر بنفسه وهمته ، ويدعو الأيام والليالي للتظلم والشكوى منه فيقول [4] :

مَا أجْدَرَ الأيَّامَ واللَّيَالِي

---

[1] - ديوانه ، ص: 624.
[2] - انظر الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، جـ:2 ، ص: 194.
[3] - ديوانه ، ص: 21.
[4] - ديوانه ، جـ :4، ص:27.

بِأنْ تَقُوْلَ مَـالَهُ وَمَـالِي

لا أنْ يَكُوْنَ هَكَذَا مَـقَالِي

فَتًى بِنِيْرَانِ الحُرُوْبِ صَالِ [1]

ثم إن الصياد في هذه الطردية لم يكن ضارياً أو جارحاً ، وإنما كـان الأمير نفسه الذي هو ممدوح المتنبي ، حيث قال فيه [2] :

لَمَّا أصَارَ القُفْصَ أمْسَ الخَالِي[3]

وَقَـتَلَ الكُـرْدَ عَنِ القِتَــالِ

حَتَّى اتَّقَـتْ بِالفَرِّ والإجْفَــالِ

صَارَ لِصَيْدِ الوَحْشِ فِي الجِبَالِ

وَفِي رِقَاقِ الأرْضِ والرِمَـالِ

فَلَمْ يَـئِلْ مَا طَــارَ غَيْر آلِ

وَمَا عَدَا فَانْفَلَّ فِي الأدْغَــالِ

وَمَا احْتَمَى فِي المَاءِ والدِّحَالِ [4]

مِنْ الحَرَامِ اللَّحْمِ والحَــلالِ

ثـم إن المتنبـي يختـتم طرديتـه بمـدح الأميـر أو الخليفـة ، لا كمـا كـان يفعـل غيره من شـعراء الطـرد ؛ الـذين كـانوا يجعلـون نهايـة الطرديـة وصـفاً لمجـالس الأكل الشهي ، والشرب ، والسرور بالصيد .

وهكذا نلاحظ من تجديد المتنبي في شعره الطـردي أنـه مـزج فيـه بـين فخـره بنفسه ووصفه الطرائد ، ومدحه للخليفة .

وقد جرت عادة الشعراء فـي نظـم أشـعار الطـرد علـى أن ينظمـوه علـى بحـر الرجز ، ويرجع الدكتور محمد مصطفى هدَّارة اتّبـاع الشـعراء لهـذا التقليـد ، إلـى أن لغة شعر الطرد يشيع فيها الكثير من الغريب ؛ فكأن الشاعر حين ينظم فيـه

---

[1] - صال : محترق بنيرانها .

[2] - ديوانه ، ص: 28.

[3] - القفص : جيل من الناس ينزلون بجبال كرمان ، كانوا على قتال مع عضد الدولة الذي قيلت هذه القصيدة في مدحه .

[4] - الدحال : جمع دحل ، كالهوة في الأرض يجتمع فيها الماء .

يرتد إلى العصر الجاهلي بيئة ، وموضوعاً ، لهذا كان لابد له أن يصطنع هذه اللغة الوعرة ليلائم بين الشكل والموضوع [1] .

هذا فن الطرد وما أصابه من تطور في هذا العصر ، فهو يشكل نوعا من التجديد في شكل القصيدة وموضوعها وبنائها ، فبعد أن كان الشاعر القديم يتعرض لهذا الغرض ضمن قصيدته ؛ التي كان يتطرق لأكثر من غرض فيها مثل الغزل ، والمدح ، والفخر ، والهجاء ، أصبحت القصيدة الطردية في هذا العصر مستقلة لحالها ، أي أن الشاعر العباسي أفرد موضوع الطرد وأسبغ عليه نوعاً من الخصوصية .

شعر الخمر :

كثر في العصر العباسي شعر الخمريات ، وهو من الفنون القديمة في الشعر العربي ، فقد كان الأعشى من أكثر وصافه وإماماً من أئمته في الجاهلية[2]. وتناوله غيره من الشعراء مثل عمرو بن كلثوم في معلقته ، واشتهر به في الإسلام أبو محجن الثقفي ، وأبو الهندي[3] ، حتى أطل العصر العباسي الذي توفر للناس فيه قسط وافر من الترف ، وأنواع اللهو المختلفة التي كان من بينها ومن دون شك الخمر ، فأسرف بعض الناس في الشرب لدرجة الإدمان ، ومن هنا بالغ الشعراء في وصف الخمر بصورة لم تحدث من قبل .

وما يلاحظ على شعر الخمر من تطور في العصر العباسي أن شأنه شأن شعر الطرد ، أخذت القصيدة أو المقطوعة الخمرية تستقل لحالها ، فلم تعد تقترن بغرض آخر ، فهذا أبرز وأهم ملامح التطور والتجديد الذي أصاب القصيدة الخمرية وغيرها من الأغراض الشعرية .

وهذه القصائد أو المقطوعات تتميز بخفة وزنها ، ورقة ألفاظها ، وسهولة لغتها ، وتميل في الغالب إلى القصر ، ربما لأنها قيلت ارتجالاً في أحد مجالس

---

[1] ـ انظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص: 495.

[2] ـ انظر الشعر والشعراء، جـ :1، ص: 163.

[3] ـ المصدرالسابق، ص : 276 ، و ص : 458 .

الشرب ، أو الحانات ، كما أنه يغلب على بعضها شيء من المجون في الأسلوب ، وكل هذا في رأيي لكي تناسب الغناء الذي غالباً ما كان يصاحب هذه المجالس .

ولأبي نواس الكثير من الشعر في ذكر الخمر ، بل إن هناك شبه إجماع على أنه شاعر الخمر الأول ، وهي فنه العظيم الذي استحق من أجله شهرة واسعة[1] ، فقد وصف أبو نواس الخمر ، ولم يغادر من صفاتها شيئاً ، وصف مجالسها ، وندمانها ، وألوانها ، وكؤوسها ، وتعتيقها ، وحاناتها ، وباعتها فأكثر أبواب شعره قيلت في هذا الغرض ، حتى قيل : (لو جمعنا كل ما قيل في الخمر في الشعر العربي إلى زمن أبي نواس ، ووضعناه في كفة ميزان ، ثم وضعنا في الكفة الأخرى خمريات أبي نواس ، لرجحت كفته رجحاناً بالغاً)[2].

ومن شهير شعر أبي نواس في الخمر قصيدته السينية التي وصف فيها مجلسه مع صحبه ، وعندما تركوا هذا المجلس تركوا فيه آثاراً جديدة وأخرى دارسة ، كما يؤكد فيها على حرصه الشديد على ملازمة مثل هذا المجلس ، ويصف الكؤوس المذهبة التي جيء بها من بلاد الفرس ، ويتعرض بالوصف أيضاً إلى ما زُيّنت به هذه الكؤوس من صور كسرى ، كما تعرض لمقدار الخمر في هذه الكؤوس ، ومقدار ما يُضاف إليها من الماء فقال[3] :

وَدَارِ نُدَامَى عَطَّلُوْهَا وَأدْلَجُوا بِهَا أثَرٌ مِنْهُمْ جَدِيْدٌ وَدَارِسُ مَسَاحِب مِنْ جَرِّ الزِقَاقِ عَلَى الثَّرَى وَأضْغَاث رَيْحَان جَنِيّ وَيَابِسُ

حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي فَجَدَّدتُ عَهْدَهُمْ وَإنِّي عَلَى أمْثَالِ تِلْكَ لَحَابِسُ

تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسْجَدِيَّةٍ حَبَتْهَا بِأَلْوَانِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ

فَلِلْخَمْرِ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوْبُهُمْ وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ القَلانِسُ

---

[1] ـ انظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص : 519.

[2] ـ تطور الخمريات في الشعر العربي ، ص: 218 .

[3] ـ ديوانه ، ص: 37 .

وقد ذكر ابن قتيبة أن أبا نواس هو أول من وصف الكؤوس بهذه الطريقة[1] ، وقد قال عنه أيضاً : (وقد سبق إلى معانٍ في الخمر لم يأتِ بها غيره كقوله في وصفها :

وَخَدِينِ لَذَّاتٍ مُعَلِّلِ صَاحِبٍ يَقْتَاتُ مِنْهُ فُكَاهَةً وَمُزَاحَا

قَالَ ابْغِنِي المِصْبَاحَ قُلْتُ لَهُ اتَّئِدْ حَسْبِي وَحَسْبُكَ ضَوؤهَا مِصْبَاحَا

فَسَكَبْتُ مِنْهَا فِي الزُّجَاجَةِ شرْبَةً كَانَتْ لَهُ حَتَّى الصَّبَاحِ صَبَاحَا)[2].

وإلى جانب هذا تناول شعراء الخمر عملية تعتيقها وقدمها ؛ فأكثرهم تغنى بالخمر القديمة ، وفضلوا أن تكون من بلاد أجنبية ، وبالأخص بلاد الفرس فمن شواهد ذلك قول أبي نواس[3]:

لا تَسْقِيَانِي بِنْتَ عَشْرٍ فَإنَّهَا كَمَا عُصِرَتْ لَمْ يَنْسَ فِرْقَتَهَا الكَرْمُ

وَلَكِنْ عَجُوْزاً بِنْتَ كِسْرَى قَدِيْمَة مُعَتَّقة قَدْ دَبَّ فِي طَيِّهَا الحُلْمُ

وقول مسلم بن الوليد[4] :

مَحْجُوْبَةً مِنْ عُيُوْنِ النَّاسِ لَيْسَ لَهَا فِي غَيْرِ بَيْتِ سَاسَان مِنْ نَسَبِ

كانَتْ ذَخِيْرة دَهْقَانٍ يَظِنُّ بِهَا مَكْسُوْبة مِنْ حَلالٍ غَير مُكْتَسَبِ

وكذلك قول بن الرومي[5] :

وَلا عَيْشَ إلا بَيْنَ أكْوَابِ قَهْوَةٍ تَوَارَثَهَا عَقْبٌ مِنْ الفُرْسِ عَنْ عَقْبِ

سُلالَة كَرْمٍ شَارِفٍ غَيْرَ أنَّهَا عُلالَة عُوْدٍ مِنْ دِنَانِ القُرَى ثِلْبِ

وقول بن المعتز[6]:

سُلافَةٌ وَرَثَتْهَا عَادٌ عَنْ إرَمْ كَانَتْ ذَخِيْرَةَ كِسْرَى عَنْ أبٍ وأبِ

ففي مثل هذا دليل ثابت على الأثر القوي الذي لعبه الفرس في توسيع دائرة انتشار هذه الظاهرة في المجتمع العربي في هذا العصر ، عما كانت عليه في السابق ، وشيء آخر قد يكون له نفس الأثر أو أعمق ؛ هو كثرة باعة

---

[1] ـ انظر الشعر والشعراء ، جـ: 2 ، ص: 554.
[2] ـ المصدر السابق ، ص : 552.
[3] ـ ديوانه ، ص: 104.
[4] ـ ديوانه ، ص: 209.
[5] ـ ديوانه ، ص: 206 .
[6] ـ ديوانه ، ص: 210 .

الخمر وأصحاب الحانات من غير المسلمين ، أي من الذميين كالنصارى ، واليهود ، فالمسلم كان يجد حرجاً في مزاولة مثل هذه التجارة[1] ، ومن هنا كثر في الشعر العباسي وصف أصحاب هذه الحانات والسقاة من غير المسلمين ، مثل وصف ابن المعتز لساق نصراني الزي جميل الصفات[2] :

وَدَامَ عَلَيْهِمْ بِالمُدَامِ مُمَنْطَقٌ بِزِنَّارِهِ حُلْو الشَّمَائِلِ وَالقَدِّ

يَمُجُّ سُلافَ الخَمْر فِي عَسْجَدِيَّةٍ تُوَهَجُّ فِي يُمْنَاه كَالكَوْكَبِ الفَرْدِ

مُحَفَّرَةٌ فِيْهَا تَصَاوِيْرُ فَارِسٍ وَكِسْرَى غَرِيْقٌ حَوْلَه فِرَقُ الجُنْدِ

كان هذا بعض ما أصاب فن الخمريات من تطور في هذا العصر ، تمثل أبرزه في استقلال القصيدة الخمرية عن غيرها من الأغراض الأخرى ، كما أكثر شعراء هذا العصر من وصف جميع ما يتعلق بالخمر كما أوضحت ، وكذلك كثرت في هذا الفن المقطوعة الشعرية مقارنة بالقصيدة ، مع ميل أكثر شعراء هذا الفن إلى الأوزان الخفيفة ، والقصيرة .

[1] ـ انظر العصر العباسي الأول ، ص: 67.
[2] ـ ديوانه ، ص: 347.

شعر المجون :

لقد كان لما توافر للناس في هذا العصر من لين العيش ، وتوفر أسباب الراحة ، واختلاط الأجناس المختلفة ، وازدحام البيوت بالجواري والرقيق ، واتساع أوقات الفراغ ، وضعف الوازع الديني عند بعض الناس ، وكثرة الحانات ، ودور القيان ، لقد كان لكل هذا أثره في شيوع شعر المجون ، والدعارة .

وقد أرجع بعضهم العامل الأول في مد تيار المجون بأسباب القوة في هذا العصر إلى اختلاط العرب بالفرس ، وترجمة بعض الكتب الفارسية التي تدعو إلى إشاعة الفاحشة والمجون بين الناس[1].

ويرى غيرهم أنه من الظلم ، والخطأ معاً أن يُعزى هذا الانحلال الخلقي إلى أمة واحدة هي الفرس ، بل يجب أن يعزى إلى كل الأمم التي جمعتها الحضارة الإسلامية ؛ لأن الانحطاط الذي أصاب هذا العصر إنما نشأ عن اختلاط هذه القوميات والأجناس بأديانها المختلفة ، وعاداتها ، ومقاييسها ونظمها المتباينة[2] ، وهذا الرأي قد يكون هو الأقرب إلى الصواب ، لأنه من الظلم فعلاً أن يُعزى كل هذا إلى أمة واحدة .

وقد عرف بهذا التيار الماجن جماعة من الشعراء ، لم يتورعوا عن نشر الرذيلة ، ولم يلتزموا بدين أو بعرف ، فأنتجوا شعراً كله فسق وفجور ، حتى أصبح هذا الباب من أوسع أغراض الشعر المستحدثة في هذا العصر ، ومن

[1] ـ انظر العصر العباسي الأول ص:65. واتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ،ص:215.
[2] ـ انظر نفسية أبي نواس ، ص: 105.

شعرائه على سبيل المثال : أبان بن عبد الحميد ، والحسين بن الضحاك ، وأبي نواس ، ووالبة بن الحباب ، وداود بن رزين الواسطي ، وفضل الرقاشي ، وحماد عجرد ، ومطيع بن إياس ، كما يُضاف إلى هذه الجماعة الماجنة عدد من الجواري مثل عنان جارية الناطفي [1].

وقد كان من أثر هذه المعطيات أن شاعت في الأدب ظاهرة خطيرة ، هي ظاهرة التغزل بالمذكر أو بالغلمان ، وكغيرها من مظاهر الشذوذ والفساد أرجعت أصولها إلى المجتمع الفارسي ، حيث إنها لم تعرف عند العرب قبل ذلك ، قال حمزة الأصفهاني : (إن الشعراء قاطبة من أيام وُلد الشعر قبيل الإسلام إلى آخر بني أمية ؛ كان تشبيبهم بالنساء لا غير ، إذ كانت دواعي عشقهم من جهة النساء ؛ فلما أقبلت دولة المسودة من الشرق مع أهل خراسان أحدث فيهم اللواط لارتباطهم الغلمان ، فشبب شعراء الدولة بالذكران)[2].
وكذلك الجاحظ ينفي أن تكون هذه الظاهرة قد عرفت عند العرب قبل هذا العصر ، فيقول : (لو تعشق العرب الغلمان لنسبوا بهم ، ولجاءهم فيه باب النسيب ، ولتهاجوا به ، وتفاخروا ، ولتنافسوا في الغلمان ، ولجرى في ذلك ما لا يخفى ، ولحدثت فيه أشعار وأخبار ؛ والذي يدل على سلامتهم من ذلك عدم هذه المعاني)[3].

ففي هذا ما يدلّ على أن هذا الغرض من ابتداع شعراء هذا العصر ، حيث لم تعرف له أصول في الشعر العربي قبل ذلك ، وقد بلغ هذا الاتجاه قمته في القرن الرابع الهجري ، الذي قدم الشعراء الغلمان فيه على النساء وتغزلوا بهم أكثر مما تغزلوا بنساء عصرهم[4].

فاتساع باب هذا الغرض في شعر العصر العباسي كان مرجعه إلى كثرة منازل اللهو ودور القصف والحانات ، وكثرة السقاة من الغلمان بها ، هذا إلى جانب النخاسين الذين وجدوا في هذا المناخ سوقاً رائجة لبضاعتهم .

---

[1] ـ انظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص: 222.
[2] ـ اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، ص : 195 .
[3] ـ الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، جـ:2 ص: 155. نقلاً عن أمراء البيان لمحمد كرد علي ، ج: 2، ص: 417 ، 418 .
[4] ـ انظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري ، ص: 158.

وهذه بعض الشواهد الشعرية على هذا التيار تبين مدى انغماس أصحابها في اللهو والملذات دون مراعاة لعرف أو دين ، فهذا أبو نواس وهو من زعماء هذا المذهب يقول :

يَـثْنِي إلَـيْكَ بِهَا سَوَالِفَهُ رَشَأٌ صِنَاعَةُ طَرْفِهِ السِّحْرُ

ظَلَّتْ حُمَيَّا الكأسِ تُبْسطُنَا حَتَّى تَهْتَّكَ بَيْنَنَا السِّتْرُ [1]

والملاحظ أن ذكر الشعراء لهؤلاء الغلمان غالباً ما يكون مقترناً بذكر الخمر ووصف مجالسها ، ما يدل على أن غالبية هذه الأشعار قيلت أثناء حالات السكر والاستماع إلى المغنين ، مثل قول أبي الشيص :

فَضضنا الخَوَاتِمَ عَنْ جَوْنَةٍ صَدُوْدٍ عَنْ الفَحْلِ بِكْرٍ هِجَانِ

عَجُوْزٍ غَدَا المِسْكُ اصْدَاغِهَا مُضَمَّخَة الجِلْدِ بِالزَّعْفَرَانِ

يَطُوْفُ عَلَيْنَا بِهَا أحْوَرٌ يَدَاهُ مِنْ الكَأسِ مَخْضُوْبَتَانِ[2]

وهذا الصنوبري شاعر الروض يخلط في شعره بين ذكره صفة الخمر وسقاتها وذكر الزهر ؛ بأن يرفض ألا يُسقى الخمر إلا من يدي ساق جميل يزين رأسه بإكليل من الزهر وذلك في قوله :

لا أشْرَب الخَمْرَ إلا مِنْ يَدَيْ رَشَأٍ مُهَفْهَفٍ كَقَضِيْبِ البَانِ مَيَّاسِ

مُوَرَّدِ الخَدِّ فِي قُمْصٍ مُوَرَّدَةٍ لَهُ مِنْ الوَرْدِ إِكْلِيْلٌ عَلَى الرَّاسِ[3]

ويوجد الكثير من الشواهد الشعرية غير هذه تجنبت ذكرها لما بها من ألفاظ بذيئة ومعان رذيلة .

---

[1] - الشعر والشعراء ، جـ : 2 ، ص : 562 .

[2] - السابق ، ص : 580 .

[3] - ديوانه ، ص : 85 .

شعر الزهد:

كان حال الناس في المجتمع العباسي متفاوتاً اجتماعياً ، ومادياً . فقد كان هذا المجتمع منقسماً إلى طبقات منها الغني غنىً فاحشاً ، والفقير الشديد الفقر ، كما كانت تنتشر في هذا المجتمع فرق ، ومذاهب ، ونحل متعددة مثل حركة الزندقة ، وفرق أخرى تدعو إلى الإباحية وعدم الاحتشام ؛ نتج عن هذا كله ظهور تيار المجون والفسق - كما رأينا في الموضوع السابق - ، وعلى إثر هذا التيار ظهر تيار آخر معاكس ، هو تيار الزهد ، والتنسك وكان له دعاة من رجال الدين ، مثل الحسن البصري ، كما كان لهذا التيار شعراء عملوا على توعية الناس وانتشالهم من هذا الفساد الذي عم البلاد .

آمنت هذه الفئة من رجال الدين والشعراء بأن العمر مهما طال قصير وأن يوم القيامة هو موعد كل واحد مع ربه ، وأن الأعمال في هذه الحياة الدنيا يجب أن تكون ذخراً ، وزاداً لدار الآخرة[1] ، وقد ترجع أهم أسباب ظهور هذا التيار إلى العامل الديني أولاً ، كما أن من عوامل ظهوره شعور الطبقة الفقيرة بالظلم الذي ألحق بها جرَّاء استغلال غيرهم لمقدراتهم فأنابوا إلى الله ، أما العامل الثالث والرئيس في رأيي فهو اشتداد موجة العبث والمجون التي جاء هذا التيار ردة فعل لها .

ومن أول رجال هذا المذهب الحسن البصري ، الذي كان يتخذ مجلسه في مسجد البصرة ويلقي مواعظه على الناس ؛ ظهر على إثره العديد من الزهاد والمتنسكين الذين انقطعوا إلى الله وهجروا زخارف الدنيا ، وقد أطلق عليهم اسم العبَّاد ، منهم - على سبيل المثال - الفضيل بن عياض ، وعبد العزيز بن

[1] - انظر العصر العباسي الأول ، ص : 399.

سليمان الراسي ، ومحمد بن سيرين ، وعلقمة الأسود ، وبشر بن الحارث الملقب ببشر الحافي[1].

أما عن شعراء هذا المذهب فمنهم أبو العتاهية ، وأبو نواس في أخريات أيامه ، وصالح بن عبد القدوس ، وأحمد بن المعذل ، وعبد الله بن المبارك ، ومحمد بن كناسة . فأبو نواس الذي اشتهر بشعر اللذة والفجور والذي كان يقول[2] :

مَا جَاءنَا أحَدٌ يُخَبِّرُ أنَّهُ فِي جَنَّةٍ مُذْ مَاتَ أوْ فِي النَّارِ

نجده ينظم في أخريات حياته شعراً في الزهد ، والقناعة ، والإيمان بغزو الموت ، وفناء العمر مثل قوله[3]:

المَوْتُ مِنَّا قَرِيْبٌ وَلَيْسَ عَنَّا بِنَازِح
فِي كُلِّ يَوْمٍ نَعِيٌّ تَصِيْحُ مِنْهُ الصَوَائِح
حَتَّى مَتَى أنْتَ تَلْهُو فِي غَفْلَةٍ وَتُمَازِح
وَالمَوْتُ فِي كُلِّ يَوْمٍ فِي زِنْدِ عَيْشِكَ قَادِح

وأبو العتاهية الذي عُرف في بدايات عمره ببعض شعر الغزل والعبث ، انصرف إلى اعتناق هذا المذهب ، فله فيه أشعار كثيرة بل نجد من الدارسين من يراه زعيماً له ، فقد نعته الدكتور محمد مصطفى هدَّارة بأبي الشعر الديني في الأدب العربي[4] ، كما قال عنه الدكتور عبد الله التطاوي : إنه رافع لواء الزهَّاد من شعراء العصر ، والشاعر الأول فيه ، حتى أصبح من المكثرين منه في أشعارهم إكثارهم من زهدهم في الحياة [5] ، ويدلنا على مدى إيمان أبي العتاهية بهذا المذهب وانصرافه التام إليه ؛ أبيات له يرى فيها أن الانقطاع إلى عبادة الله والاكتفاء بالماء البارد ، والخبز اليابس في غرفة نائية عن الناس

[1] ـ انظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص: 307. والعصر العباسي الأول ، ص: 86.
[2] ـ ديوانه ، ص: 252.
[3] ـ زهديات أبي نواس ، ص : 40.
[4] ـ انظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص: 312.
[5] ـ انظر القصيدة العباسية قضايا واتجاهات ، ص: 138.

، خير عنده من حياة الصخب في القصور العالية التي يعقبها غضب الله وسخطه ، وأبياته هي[1]:

رَغِيْفُ خُبْزٍ يَابِسٍ تَأكُلَهُ فِي زَاوِيَة
وَكُوْزُ مَاءٍ بَارِدٍ تَشْرَبَهُ مِنْ صَافِيَة
وَغُرْفَةٌ ضَيِّقَة نَفْسُكَ فِيْهَا خَالِيَة
أوْ مَنْزِلٌ بِمَعْزِلٍ عَنْ الوَرَى بِنَاحِيَة
تَدْرُسُ فَيْهِ دَفْتَراً مُسْتَنِداً بِسَارِيَة
مُعْتَبِراً بِمَنْ مَضَى مِنْ القُرُوْنِ الخَالِيَة
خَيْرٌ مِنْ السَّاعَاتِ فِي القُصُوْرِ العَالِيَة
تَعْقُبُهَا عُقُوْبَةٌ تَصْلَى بِنَارٍ حَامِيَة

ويتجه أبو العتاهية في أبيات له أخرى إلى من يشقى في جمع الأموال ولا يعمل لآخرته ، فيقول له إن هذا المال لن يُغني عنك شيئاً ، بل سيبقى لمن يرثه من أهله ، وسيشتد خلاف هؤلاء الورثة حول قسمة هذا المال :

أبْقَيْتَ مَالَكَ مِيْرَاثاً لِوَرَثَتِهِ فَلَيْتَ شِعْرِيَ مَا أبْقَى لَكَ المَالُ
القَوْمُ بَعْدَكَ فِي حَالٍ تَسُرُّهُمُ فَكَيْفَ بَعْدَهُمُ دَارَتْ بِكَ الحَالُ
مَلُّوا البُكَاءَ فَمَا يَبْكِيكَ مِنْ أحَدٍ وَاسْتَحْكَمَ القِيْلُ فِي المِيْرَاثِ وَالقَالُ[2]

فشعر أبي العتاهية في هذا الغرض يميل إلى النثرية ، ويتفاوت فنياً مع أي شعر له آخر قاله في المدح مثلاً ، لأن شعر المديح - غالباً - لا يُصادف قبولاً عند الممدوحين إن كان على هذه الشاكلة[3].

وقد لجأ أبو العتاهية في شعره الزهدي إلى خفة الأوزان ، وسهولة العبارات ووضوحها ، فهو آخذ في اعتباره بالدرجة الأولى الوظيفية الأخلاقية والتعليمية للشعر ، مؤثراً القرب من جمهوره الذي كان غالبيته من العامة

[1] - ديوانه ، ص : 488.
[2] - ديوانه ، ص: 169.
[3] - انظر الأدب في عصر العباسيين ، جـ: 1، ص: 406 وما يليها.

الفقراء والأميين ، وهذا لا يتحقق إلا بسهولة الأسلوب ، وبساطة التصوير ، وقرب المعنى .

المبحث الثاني : الاتجاهات الشكلية

- **الأسلوب الشعري**

- **الأوزان وأثر الغناء فيها**

- **الصورة الشعرية**

1 ـ الأسلوب الشعري:

رأينا كيف طرأت تغيرات واسعة على حياة المجتمع العربي في العصر العباسي ، كان لها بالغ الأثر على شكل القصيدة العربية ، فقد طرأ عليها شيء من التغيير سواء أكان ذلك بالتجديد في الأغراض الشعرية القديمة ، أم بإضافة أغراض أخرى لم تعرف قبل ذلك ؛ ولكن استدعت اختراعها ظروف العصر ، فقد وقفت عند هذه الأغراض في المبحث السابق ، وسأقف هنا عند أسلوب الشعر ولغته في هذا العصر ، هذا الأسلوب الذي أثير حوله جدل واسع قديماً وحديثاً ، وهو ما عُرف بالأسلوب المحدث ، فما يميز هذا الأسلوب بشكل عام هو ابتعاده عن الرصيد اللغوي القديم كما أنه يمتاز بالبساطة ، والتأثر بمعطيات الثقافة ، والحضارة المعاصرة ، وقد أشار الجاحظ إلى وجود لغة مولدة منذ القرن الثاني كانت أثراً من آثار اختلاط اللغة العربية بلغات أهل البلاد المفتوحة وبخاصة الفرس[1].

وبالنظر إلى أسلوب الشعر في هذا العصر يلاحظ أن أهم ما يميزه هو الميل إلى الشعبية ؛ التي تجنح إلى اختيار الألفاظ السهلة الرقيقة الموحية القريبة من ألفاظ الحياة اليومية ، ورفض الألفاظ الوحشية الفخمة التي كان القدماء يعتمدون عليها كثيراً في لغة شعرهم ، وهذه الشعبية في لغة الشعر تكاد تكون عامة في هذا العصر ، وهي لا تقف عند القول بألفاظ قريبة من لغة الحياة اليومية فحسب ، وإنما تتعداها إلى الموضوع ، والقول فيما يعبر عن تطلعات الناس ، ورغائبهم ، وهمومهم[2] ، وأكثر ما تتضح بساطة الأسلوب لدى الشعراء العباسيين عندما ينظمون شعراً في الغزل ، وقد كان لشيوع الغناء في

[1] ـ انظر البيان والتبيين ، جـ : 1، ص : 11، 12.
[2] ـ انظر تاريخ ا الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، ص : 328.

هذا العصر أثره الواضح في ذلك ، فلابد للغة الشعر الذي سيغنى به أن تكون قريبة من الناس .

وهناك غرض من أغراض الشعر مال فيه غالبية الشعراء إلى النظم على هذا النمط هو شعر الزهد والوعظ ، ولعل أبرز من مثل هذا الجانب في شعره الزهدي هو الشاعر أبو العتاهية كما سبق أن أشرنا لذلك ، وقد كان أبو العتاهية مدركاً لصنيعه هذا في الشعر بل إنه يتعمده تعمداً ، ودليل ذلك قوله :(الشعر ينبغي أن يكون مثل أشعار الفحول المتقدمين ، أو مثل شعر بشار ، وابن هرمة ، فإن لم يكن كذلك فالصواب لقائله أن تكون ألفاظه مما لا يخفى على جمهور الناس مثل شعري ، ولا سيما الأشعار التي قيلت في الزهد ، فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ، ولا من مذاهب رواة الشعر وطلاب الغريب)[1]. فأبو العتاهية لا ينكر على شعر الأوائل قدسيته ، وأسبقيته ، بل يرى نفسه مقصِّراً دونه ، وهذا ما دعاه إلى اعتماد هذا المذهب الجديد ، لأنه في رأيه أصلح للعصر وأهله ، ولا تعني هذه الشعبية والسهولة في شعر أبي العتاهية أو غيره ، سقوط الشعر وتفاهته في كثير من الأحيان ، فقد تكون الألفاظ عادية ، والتعبيرات سهلة ، إنما طريقة اختيار تلك الألفاظ ، وارتباط بعضها ببعض هو ما يكسبها جمالاً تعبيرياً فريداً[2] .

وإلى جانب أبي العتاهية نلاحظ وجود هذه الظاهرة في شعر بشار ، والسيد الحميري ، وأبي نواس ، وأبي نخيلة ، والحقيقة أن شعر معظم شعراء هذا العصر ، كان ينقسم إلى نمطين من الأداء ، نمط يلتزم فيه الشعراء مرغمين بمراسم الشعر التقليدي القديم ، وهذا النوع هو الشعر الرسمي الذي يتوجه به أصحابه إلى طبقة الخاصة من رجال الدولة سواء كان ذلك في المدح ، أم الرثاء ، أم التهنئة ، أم كل ما يتعلق بالمناسبات السياسية ، كما قد يلجأ الشعراء إلى الأسلوب الجاهلي القديم مجاراة للفحول الأوائل ، إثباتاً لمقدرتهم اللغوية ،

---

[1]- الأغاني ، جـ :4 ، ص :70.

[2] - انظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص : 562.

وإبرازاً لمخزونهم من غريب ألفاظ العرب وهذا يكثر عند بشار ، وأبي نواس وخاصة في شعرهما من الرجز .

كما أن شعر شعراء هذا العصر يوجد فيه نمط آخر متحرر يستجيبون فيه لنداء ذواتهم ، واصفين فيه واقع حياتهم ، فهو شعر شعبي أصدق وأفعل في القلوب من الشعر الرسمي[1].

كانت شعبية الشعر في بداية هذا العصر وقبله فردية ولا تمثل اتجاهاً يستحق الوقوف عنده ، لكنها مع تقدم الزمن ، ومع ما أصاب حياة الناس من تطور ؛ أصبحت من أهم اتجاهات الشعراء في العصر العباسي ، يؤكد هذا ما رواه صاحب الأغاني عن أحدهم من أنه قال : (كنا كثيراً ما نقول للسيد - يريد السيد الحميري - : مالك لا تستعمل من الغريب في شعرك ما تُسأل عنه كما يفعل الشعراء ؟ قال : لأن أقول شعراً قريباً من القلوب يلذه من سمعه ، خير من أن أقول شيئاً متعقداً تضل فيه الأوهام)[2] ، فرسالة هذا الشاعر وأمثاله أن يكون شعرهم قريب المأخذ ، أكثر تصويراً لواقع العصر دون اصطناع للغرابة .

وإلى جانب ميل الشعراء إلى البساطة ، والشعبية في أسلوب شعرهم يلحظ كذلك شيوع الشعر الفلسفي ، أو المنطقي (وهو الأسلوب الذي يلزم المرء بالحديث فيه والمضي بالكلام معه ؛ السير على طريقة أهل المنطق ، من أخذ نتيجة من مقدمات توحي بها وتعلن عنها وتجر إليها ، أو جريانه على شكل العلة والمعلول ، والسبب والمسبب)[3]. مثال ذلك قول المتنبي[4] :

تَشْتَكِي مَا اشْتَكَيْتُ مِنْ أَلَمِ الشَّوْ قِ إِلَيْهَا وَالشُّوْقُ حَيْثُ النَ ُحُوْلُ

فالشاعر يرد في هذا البيت على تلك المرأة المعشوقة التي تزعم أنها تبادله الهوى والشوق ، لكنها كاذبة في دعواها هذه ، لأن جسمها وافر ، ولو كانت كما تصف نفسها ، لأصابها النحول كما أصاب عشيقها .

---

[1] ـ الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري ، ص: 329.
[2] ـ الأغاني ، جـ : 7، ص: 10.
[3] ـ تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني ، ص: 315.
[4] ـ ديوانه ، ص: 113.

ومثله أيضاً قول أبي الفتح البستي[1] :

وَلَوْ أَبْقَى فُرَاقَكَ لِي فُؤاداً وَجَفْناً كُنْتُ أَجْزَعُ مِنْ فُؤادِي

وَلَكِنْ لا رُقَادَ بِغَيْرِ جَفْنٍ كَمَا لا وَجْدَ إلا بِالفُؤادِ[2]

فأراد أن يقول إنه لم يجزع لأنه سلب فؤاده الذي هو محل الجزع ، كما أنه لم ينم فمحل النوم هو الجفن ، وليس له جفن بعد الفراق .

وبهذا يتضح مدى تأثر الشعراء العباسيين بالصفات العقلية ، والفلسفية التي كان للثقافات الوافدة وخاصة ثقافة اليونان أثرها الواضح في صبغ شعر هذا العصر بهذه الصبغة ، حيث كثر استخدام الأدلة والأقيسة المنطقية ، وأكثر ما يظهر ذلك في شعر أبي تمام ، والمتنبي ، وأبي العلاء ، فمن ينظر في شعر أبي تمام على سبيل المثال يشعر شعوراً واضحاً بأن الحواجز التي تفصل بين الشعر العربي من جهة ، وبين الثقافة والفلسفة من جهة أخرى قد رُفعت ، ولم يعد هناك ما يعوق التزاوج والاتصال الشديد بين التفكير الفني والتفكير الفلسفي والثقافي ، فتحدث تلك الرمزية الواسعة التي يلاحظها كل من يقرأ أشعاره[3] .

وإذا كان السيد الحميري كما مر بنا جنح في شعره إلى السهولة ، ونبذ الإغراب والتوعر ؛ فإن هذا الإغراب كان مذهباً عند أبي تمام ، هذا الشاعر الذي سُئل : لماذا لا تقول ما يُفهم ؟ فكانت إجابته الدالة على تمسكه وإدراكه لمذهبه في الشعر : (ولماذا لا تفهم ما يُقال ؟) [4] .

وكان شعر المتنبي وأبي العلاء ثمرة حقيقية لانتعاش الحركة الفكرية ، التي تكونت من ثقافة كانت نتاج الثقافات الأجنبية ، وامتزاجها بالتراث العربي ، فالمتنبي علم الشعراء في القرن الرابع دون جدال ، كما أن المعري علم شعراء القرن الخامس دون منازع (فقد جاءَا في نطاق الشعر الغنائي بأفكار جديدة في صياغة قديمة ؛ وهذا ما لم يفعله الشعر العربي حتى عصر أبي تمام

---

[1] ـ أبو الفتح البستي 400 هـ ، هو علي بن الحسين بن يوسف بن عبد العزيز البستي أبو الفتح ، شاعر عصره وكاتبه ولد بسجستان وإليها نسبته . انظر الأعلام جـ: 4، ص: 326.

[2] ـ تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني ، ص: 316.

[3] ـ انظر الأدب العربي في الجاهلية والإسلام ، ص: 117.

[4] ـ أخبار أبي تمام ، ص:104.

)[1] ، وقد قيل عنهما أيضاً (لقد كان المتنبي شاعراً يتفلسف ، بينما كان أبو العلاء فيلسوفاً يتشاعر)[2].

كما يُضاف إلى سمات أسلوب الشعر في هذا العصر تكلف الشعراء للمحسنات البديعية ، فلم يكن اختراع هذه المحسنات راجعاً إلى هذا العصر بل كانت له إرهاصات في أشعار الأوائل ، غير أن استخدامها كان عفوياً ودون عمد إلى التكلف والتصنع ، بدليل ما نقله ابن رشيق من ورود هذه المحسنات في البيت ، أو البيتين في القصيدة الكاملة من أشعار القدامى[3] . وعلى الصعيد النقدي كان ابن المعتز أول من تنبه إلى هذا الفن فألف فيه كتابه المشهور (البديع) ، الذي رفض فيه نسبة هذا الفن المطلقة للمولدين حيث قال : (وإنما غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس ؛ أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع)[4] .

أما البديع كمدرسة فنية ، وصنعة مستهدفة فلم تظهر في بدايتها إلا على يدي مسلم بن الوليد ، (وهو أول من تكلف البديع من المولدين ، وأخذ نفسه بالصنعة ، وأكثر منها ، ولم يكن في الأشعار المحدثة قبل مسلم إلا النُبذ اليسيرة ، وهو زهير المولدين : كان يبطئ في صنعته ويجيدها)[5] ، وقد جعله ابن قتيبة أستاذاً لأبي تمام في هذا المجال[6] .

كما أرجع عدد من الدارسين سبب اتساع هذا الفن في الشعر العباسي ؛ إلى اتصال العرب بغيرهم ، وإلى اتساع دائرة الترف الحضاري ، والاقتصادي ، مما دفع الناس إلى التفنن في أساليب عيشهم ، فكان من الطبيعي أن يصحب ذلك ترف عقلي وفني ، انعكس على أدبهم ، فأكثر الشعراء من البديعيات في الشعر استجابة لكل هذه التداعيات [7] .

---

[1] ـ التقليد والتجديد في الشعر العباسي، ص: 70.
[2] ـ مع المتنبي ، ص: 278.
[3] ـ انظر العمدة ، جـ :1، ص: 130.
[4] ـ البديع ، ص: 3.
[5] ـ العمدة ، جـ:1، ص:131.
[6] ـ انظر الشعر والشعراء ، جـ : 2 ، ص : 569.
[7] ـ انظر تطور الشعر في بلاد الشام في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، ص: 197. وأشكال الصراع في القصيدة العربية، جـ:3، ص: 421.

ويُضاف إلى سمات أسلوب الشعر في هذا العصر ؛ غلبة النزعة العلمية ، أي قيام الشعراء بتضمين مصطلحات العلوم كالنحو ، والفقه ، والفلسفة في أشعارهم ، فمما ضُمِّن فيه ما يخص علم النحو ، قول أبي الفتح البستي[1] :

عُزِلْتُ وَلَمْ أذْنِبْ وَلَمْ أكُ خَائِناً وَهَذَا لإنْصَافِ الوَزِيْرِ خِلافُ

حُذِفْتُ وَغَيْرِي مُثْبَتٌ فِي مَكَانِهِ كَأَنِّي نُونُ الجَمْعُ حِيْنَ تُضَافُ

ومما يشبه كلام أصحاب الفرق الإسلامية قول القاضي الجرجاني[2] :

وَلَمَّا تَنَاءتْ بِالأحِبَةِ دَارُهُمْ وَصِرْنَا جَمِيْعاً مِنْ عَيَانٍ إلَى وَهْمِ

تَمَكَّنَ مِنِّي الشَّوْقُ غَيْرُ مُبَارِحٍ كَمُعْتَزِلِيّ قَدْ تَمَكَّنَ مِنْ خَصْمِ

وكذلك يقوم المتنبي بذكر أسماء جماعة من الفلاسفة في أبيات له منها[3] :

مَنْ مُبْلِغُ الأعْرَابَ أنِّي بَعْدَهَا جَالَسْتُ رَسْطَالِيْسَ والإسْكَنْدَرَا

وَسَمِعْتُ بَطْلِيْمُوسَ دَارَسَ كُتْبَه مُتَمَلِّكاً مُتَبَدِّياً مُتَحَضِّرَا

وَلَقِيْتُ كُلَّ الفَاضِلِيْن كَأَنَّمَا رَدَّ الإلَهُ نُفُوْسَهُمْ والأعْصُرَا

بقي من سمات الأسلوب الشعري في هذا العصر ، ما يلاحظ من كثرة استعمال الألفاظ الأجنبية ، كالفارسية ، وغيرها مما شاع بين العرب ، واختلط بلغتهم الشعبية ، واستعمله الشعراء مجاراة للذوق العام[4] .

كانت هذه أهم ملامح تطور الأسلوب الشعري في العصر العباسي ، نتيجة اتساع رقعة الخلافة الإسلامية ، واختلاط العرب بغيرهم ، وترجمة بعض الكتب الأجنبية ، كما أن من أهم أسبابه أن غالبية شعراء هذا العصر كانوا من أصول غير عربية .

2 ـ الأوزان وأثر الغناء فيها :

سيتم الحديث في هذا المبحث عن أحد جوانب البناء الفني للقصيدة ، وهو جانب الموسيقى ، أو الأوزان ، فهل طرأ تغير على هذا الجانب من القصيدة في

---

[1] ـ تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، ص : 317 .
[2] ـ المصدر السابق ، ص : 318 .
[3] ـ شرح ديوان المتنبي، 147.
[4] ـ انظر اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، ص :366 . والفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص:123، 124.

هذا العصر ؟ أم أن الشعراء العباسيين التزموا بما انتهى إليهم من الأوزان الخليلية المعروفة ؟ أم أنهم قاموا فيها ببعض التصرف ، والتحوير وفقاً لتطور العصر ؟ .

في الحقيقة إن تطوراً أخذ يطرأ على أوزان الشعر العربي منذ أواخر العصر الأموي ؛ نتيجة اتساع جانب الغناء فاتجه الشعراء إلى النظم على الأوزان القصيرة ، والمجزوءة ، كما أحيوا بعض الأوزان المهملة[1] .

إذاً قد كانت موسيقى وأوزان القصيدة من أبرز عناصر الشكل التي طرأ عليها تطوير أو تجديد ، فحين تطورت الحياة في العصر العباسي واتجه عامة الناس نحو الغناء ، واللهو ، والطرب ، كان في هذا أثر على الأوزان الشعرية ، فالغناء يتطلب من الأوزان أقصرها ، وأخفها ، فكان اعتماد العباسيين بالدرجة الأولى على البحور القصيرة ، كما لجؤوا إلى مجزوءات البحور الطويلة للتخلص من طولها وثقلها.

وهذا لا يعني أن الأوزان القصيرة لم تُعرف قبل العصر العباسي (بل عُرفت في العصر الإسلامي في أشعار المكيين ، والمدنيين من أمثال عمر بن أبي ربيعة ، وعدي بن زيد في القدماء لأنه من سكان المدر بالحيرة)[2] .

فالذي يمكن اعتباره جديداً في هذا العصر هو الإفراط ، والإكثار من اللجوء لهذه الأوزان ، لأن القدماء سبقوا إليها إلا أنهم لم يكثروا من النظم عليها ، فهي لا تلائم أنماط عيش العرب الأوائل ، الذين غالباً ما كانت تسيطر عليهم الجدية في كل المواقف ، ومن هنا برزت جديتهم تلك في قصائدهم باتخاذهم الأوزان الطويلة الكاملة ، والعكس حدث مع شاعر العصر العباسي الذي كان يجهد نفسه بحثاً عن البحر الخفيف لينظم فيه ؛ تمشياً مع ظروف عصره ، فقد جاء عن أبي العلاء أن الشعراء العباسيين استحدثوا المقتضب ، والمضارع ، وأن الخليل قد سجلهما ، وليس لهما أصل في الشعر العربي القديم[3] . ومما استشهدوا به لوزن المقتضب قول أبي نواس[4]:

---

[1] ـ انظر اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، ص: 331. واتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص: 540.
[2] ـ الفصول والغايات، ص:212.
[3] ـ المصدر السابق، ص: 132.
[4] ـ ديوانه ، ص: 64.

حَامِلُ الْهَوَى تَعِبُ يَسْتَخِفَّهُ الطَّرَبُ

وشاهد وزن المضارع قول أبي العتاهية[1] :

أيَا عُتْبَ مَا يَضُرُّ كِ أنْ تَطْلِقِي صِفَادِي

فعلى هذا الشكل نجد أن الغناء قد نوّع من (أوزان الشعر العربي تنويعاً واسعاً ، فبينما كان يقضي على بعض الأوزان الطويلة المعقدة أو يكاد ، كان يُشيع الأوزان الأخرى ، التي تتلاءم معه مثل المتقارب ، والرمل ، والهزج والخفيف ، فإن ألم بالأوزان الطويلة أخذ ينوع فيها بما يحدثه من مشطوراتها ومجزوءاتها ، أو من اختلاف ضروبها وأعاريضها)[2] .

كان هدف الشعراء من وراء كل هذا محاولة تطويع الشكل الموسيقي ليتماشى مع طبيعة حياتهم المعاصرة ، لكن هذه المحاولة لم تصل إلى درجة هدم بناء وإقامة بناء آخر ، دليل ذلك أن الأوزان الطويلة لم تترك بشكل تام في هذا العصر (بل إن هذه البحور احتفظت بشكلها ، وخاصة في الشعر الرسمي مثل المدح ، والفخر ، وغيرهما)[3].

ومما قام به الشاعر العباسي من تجديدات في هذه الأوزان ؛ نجد سلماً الخاسر تلميذ بشار وراويته - على سبيل المثال - يقول في موسى الهادي :

مُوْسَى المَطَرْ غَيْثٌ بَكَرْ

ثُمَّ انْهَمَرْ أَلْوَى المِرَرْ

كَمْ اعْتَسَرْ ثُمَّ أيْتَسَرْ

وَكَمْ قَدَرْ ثُمَّ غَفَرْ

فهذه المقطوعة تصنف ضمن الشعر الرسمي ، الذي يفترض فيه اتباع الأوزان الطويلة ، إلا أن الشاعر آثر الإتيان بها على هذا الشكل ، تمشياً مع تفضيل شعراء عصره للنظم على مثل هذا الوزن ، حتى قال عنه ابن رشيق إنه أول من ابتدع ذلك في الرجز[4].

---

[1] - ديوانه ، ص : 82 .
[2] - الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص: 74.
[3] - انظر موسيقى الشعر العربي ، ص : 22 .
[4] - انظر العمدة ، جـ:1، ص: 123.

وقد أجمع الدارسون على أن أهم شاعر عنى بصنع أشعاره على الأوزان الخفيفة ، أو المهملة هو أبو العتاهية ، ذكر له ابن قتيبة قوله[1] :

لِلمَنُوْنِ دَائِـرَا تٌ يُدِرْنَ صِرْفَهَا

ثُمَّ يَنْتَقِيْنَنَـا وَاحِـداً فَوَاحِـدَا

فوزن هذين البيتين هو(فاعلن مستفعلن) مرتين وهو عكس البسيط ، فأبو العتاهية في وزن بيتيه هذين يعد شاعراً مبتكراً ، خرج عن إطار الأوزان التقليدية ولتمكنه من أداة الشعر لا يمكن للمتلقي أن ينكر عليه ذلك ، وقد سُئل أبو العتاهية مرة :(هل تعرف العروض ؟ فقال : أنا أكبر من العروض)[2]، كما قال عنه أبو الفرج أيضاً : (وله أشعار لا تدخل في العروض)[3]، وذكر عنه ابن المعتز ما يشبه قول الأصفهاني من (أنه لسهولة شعره وجودة طبعه فيه ، ربما قال شعراً موزوناً ليس من الأعاريض المعروفة ، وكان يلعب بالشعر لعباً ، ويأخذ كيف شاء) [4] .

فمع هذه الأقوال لهؤلاء العلماء ؛ لم نعد بحاجة إلى تأكيد على أن هناك تجديداً طرأ على أوزان الشعر في هذا العصر ، حتى وإن كانت تجديداتهم هذه لم تخرج في عمومها عن الأوزان الخليلية التقليدية.

وكما خرج هؤلاء الشعراء عن الوزن الشعري التقليدي ؛ نجد لهم محاولات تجديدية أخرى فيما يتعلق بالقافية الشعرية الموحدة ، التي ظلت مسيطرة على الشاعر العربي قبل هذا العصر ، قبل أن تتسع حركة التوشيح في الأندلس ، فكان هذا أحد مظاهر التجديد التي أضافها الشاعر العباسي على شكل القصيدة العربية .

وهذا التنويع في قافية القصيدة الواحدة ، أو التحرر منها يتمثل في ابتكار الشاعر العباسي لأنماط شعرية جديدة ، مثل اتباعه لنظام المزدوج ، والمسمط ، والمشطر ، والمربع ، والمخمس .

---

[1] ـ الشعر والشعراء، جـ : 2 ، ص : 538 .

[2] ـ الأغاني ، جـ : 3 ، ص : 122.

[3] ـ المصدر السابق ، جـ : 2 ، 538 .

[4] ـ طبقات ابن المعتز ، ص: 229 . كما نجد تأكيداً على هذا النهج في شعر أبي العتاهية في كتاب الشعر والشعراء يتضح من قول مؤلفه : (وكان لسرعته وسهولة الشعر عليه ربما قال شعرا موزوناً يخرج به عن أعاريض الشعر وأوزان العرب) . الشعر والشعراء ، جـ : 2 ، ص : 538 .

فالمزدوج على سبيل المثال ، هو نمط من الشعر تتغير فيه القافية مع كل بيت ، على أن يكون البيت مصرعاً أي أن قافية الشطر الأول تتفق مع قافية الشطر الثاني ، فكأن في ذلك تعويضاً عن وحدة القافية في القصيدة بأكملها في نظام الشعر العمودي التقليدي ، وأكثر ما لجأ الشاعر العباسي إلى هذا النمط عند نظمه في الشعر التعليمي ، والأخلاقي ، وشعر ، الزهد والحكمة ، مثل مزدوجة أبي العتاهية الموسومة بذات الأمثال ، والتي قال في مطلعها[1] :

حَسْبُكَ مِمَّا تَبْتَغِيْهِ القُوْتُ مَا أَكْثَرَ القُوْت لِمَنْ يَمُوْتُ

الفَقْرُ فِيْمَا جَاوَزَ الكَفَافَا مَنْ اتَّقَى اللهَ نَجَا وَخَافَا

فكل هذه المحاولات تعد تجديداً من الشاعر العباسي ، أدخلها على شكل ، وموضوع القصيدة الشعرية في عصره ، وكان كل هذا ناتجاً عن بعض العوامل السياسية والاقتصادية ، كما لا ينكر دور اتساع حركة الغناء في هذا العصر فهو من أهم العوامل التي دعت الشاعر العباسي للنسج على هذا المنوال .

وأهم ما يلاحظ على قضية تجديد الشاعر العباسي في أوزان الشعر ، هي أن المادة الخام ، والأساسية كانت متوفرة قبله وهي أوزان الخليل المعروفة ، فكان جهد الشاعر العباسي محصوراً في أن استغل قدرة هذه البحور على استيعاب الزحافات والعلل ، كما قام بعكس أكثر هذه البحور ، ونَحَتَ ، وحَوَّرَ ، ولفَّقَ في بعضها الآخر ، وهذه المحاولات في أغلبها كانت من قبيل ادعاء التعالم ، والتبحر في علم العروض ، والتفاخر بذلك ، بل حدث في هذا المجال من انتشار الصنعة ، مثلما حدث من تفنن الشعراء في إتباع البديع ، فكانت هذه صنعة كتلك ، ولكنها في علم العروض.

[1] - ديوانه ، ص:371.

3 ـ الصورة الشعرية :

الصـورة الشـعرية أو ، الصـورة الفنيـة ، عنصـر بـارز مـن عناصـر القصـيدة الشـعرية ، وهـي تكـون مقترنـة دائمـاً بالخيـال ، فالخيـال هـو الأب الشـرعي للصـورة الفنية ، ولا يقصد بالخيال هنا البعد عن الحقائق والجري وراء الأوهام ؛ إنما يقصد به تجسيم الحقائق ، وتكبيرها بقصد التوضيح ، والإقناع ، وتقوية المعاني ، وإثارة المشاعر ، والتنبيه إليها ، وعلى هذا الشكل فلنا أن نتخيل مدى جفاف الشعر من دون الأخيلة ، والصور الفنية .

وعنصر التصوير موجود في الشعر العربي منذ بداياته ، ولكن الغرض منه قديماً كان التوضيح والإبانة ؛ لذلك كان الشعراء القدامى لا يأتون بالصور البعيدة ، وقد لاحظ هذا الأمر صاحب الموشح فقال (حدثنا محمد بن يزيد النحوي ، قال : أحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبّه ، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة ، ونبّه فيه بفطنته إلى ما يخفى على غيره ، وساقه برصف قوي ، واختصار قريب ، وعدل فيه عن الإفراط)[1] . ففي هذا القول نلاحظ التركيز والحرص على قرب المشبه من المشبه به وعدم الإفراط والجنوح إلى الخيال ، وكل هذا لا يبتعد عن الأسس التي وضعها المرزوقي لعمود الشعر العربي .

غير أن المحدثين كانت نظرتهم للصورة الشعرية مختلفة ، وتعاملهم معها مغايراً وخاصاً ، وهذا أمر لا يستطيع أحد أن ينكره عليهم ، فقد رأوا (أن غاية الصورة ليست في المقاربة ، أو إصابة كبد الحقيقة ، بل هي في حملها إلى نفس السامع إيحاءً ما)[2] ، فقد استعان الشاعر العباسي على التجديد في إطار الصورة الفنية ؛ بما أحاط به من مناخ حضاري لم يتوافر لسابقيه ، كما كان للثقافة التي سادت في عصرهم سواء أكانت محلية أم وافدة دور بارز في تدعيم هذا التطور الذي لحق بالتصوير الشعري في العصر العباسي .

وللصورة الشعرية بعض الوسائل التي تخرجها ، كأن يتجه الشاعر للوصف المجرد ، وينقل معالم المشهد بالمفردات اللغوية على وجه الحقيقة ، وهذا ما يُعرف بالتصوير المباشر ، وقد يعمد الشاعر إلى عقد شبه بين شيئين متقاربين في بعض الوجوه ، أو قد يعتمد على التشبيه ثم يتناساه مدعياً أن المشبه من جنس المشبه به ، وهو ما يُعرف بالاستعارة ، أو قد يستخدم اللفظة في غير معناها اللغوي لعلاقة من العلاقات غير المشابهة ؛ وهو ما يُعرف بالمجاز المرسل ، أو قد يلجأ إلى الكناية ويترك التصريح [3] . وقد لجأ شعراء هذا العصر في إطار التصوير الفني إلى

---

[1] ـ الموشح ، ص : 380 .
[2] ـ تطور الشعر في بلاد الشام في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، ص : 296 .
[3] ـ انظر الصورة الفنية في الشعر العربي مثال ونقد ، ص : 131 .

وسائل أخرى مثل التجسيد ، والتجسيم ، أو المبالغة في إظهار بعض الصور ، ورسمها [1] .

فمن وسائل التصوير كما قلنا التصوير المباشر ، وهو الذي يعني الإفادة من المعاني الحقيقية للألفاظ ، واستخراج أقصى طاقاتها دون اللجوء إلى المجاز ، ويتمثل هذا اللون من التصوير في غالبية الشعر العربي الذي هو في أغلبه شعر وصف ، ولكن ذلك يتباين من شاعر لآخر حسبما توافر لدى كل شاعر من ملكة لغوية غزيرة كانت أو فقيرة ، فهذا أبو نواس - على سبيل المثال - يصف كلباً للصيد ماهراً لا تفوته فريسة ، لشدة سرعته ، ومهارته ، فلم يلجأ الشاعر في وصفه - كما سنرى - إلى الخيال بل يأتي بصورته بشكل مباشر معتمداً على مخزونه اللغوي من الألفاظ القادرة على نقل الصورة ، فهو يقول[2] :

أنْعَتُ كَلْباً لَيْسَ بِالمَسْبُوْقِ
جَاءتْ بِهِ الأمْلاكُ مِنْ سَلُوْقِ
فَالوَحْشُ لَوْ مَرَّتْ عَلَى العَيُوْق
أنْزَلَهَا دَامِية الحُلُوْقِ
ذَاكَ عَلَيْهِ أوْجَبُ الحُقُوْقِ
لِكُلِّ صَيَّادٍ بِهِ مَرْزُوْق

ومن وسائل التصوير الفني الاستعارة ، وقد عرَّفها البيانيون بأنها اللفظ المستعمل في غير ما وضع له ، لعلاقة المشابهة بين المعنيين الأصلي ، والمجازي مع قرينة مانعة من أدائه المعنى الأصلي للفظ [3] .

ويرى القاضي الجرجاني أن أبا تمام هو أول من جرّأ الناس على الإكثار منها (... وقد كانت الشعراء تجري على نهج منها قريب من الاقتصاد ، حتى استرسل فيه أبو تمام ، ومال إلى الرخصة فأخرجه إلى التعدي ، وتبعه أكثر المحدثين)[4].

---

[1] - انظر نقد الشعر ، ص : 55 .
[2] - ديوانه ، ص : 466 .
[3] - انظر الصورة الفنية ، ص: 148.
[4] - الوساطة ، ص: 323 . والعمدة ، جـ : 2 ، ص:51.

والحقيقة أن أبا تمام فتح باباً جديداً أمام الشعراء في التعامل مع هذا المحسن - أي الاستعارة - لجأ فيه إلى الإغراق والتجسيم والمبالغة ، حتى أصبح هذا الصنيع محور عمله ؛ مما فتح المجال أمام نقاد عصره ليشتغلوا به وبشعره ، وخاصة لدى النقاد المحافظين ، ودعاة التمسك بالنهج الشعري القديم ، مثل الآمدي الذي استعرض في كتابه الموازنة طائفة من استعارات أبي تمام وصفها بالقبح ، وهو لا يعني قبح الصورة وإنما يعني - كما يقول - خروج أبي تمام عن تقاليد العرب في استخدام الاستعارة إذ هم يستخدمونها (فيما يقارب المشبه ويدانيه ، أو يشبهه في بعض أحواله ، أو يكون سبباً من أسبابه ، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له ، وملائمة لمعناه)[1].

ويرفض كل من الدكتور طه حسين ، والدكتور شوقي ضيف رأي الآمدي في استعارات أبي تمام وتقبيحه لها ، ويريان أن من حق الفنان أن يجدد وأن يقترح من الأدوات ما يريد[2]. وأنا أؤيد رأي الدكتورين لأنه بالفعل يحق للفنان أن يستخدم من الأدوات في توصيل أفكاره للناس ما يشاء ، ولأنه بكل تأكيد سيجد من الجمهور من يتذوق شعره ويستسيغه .

ويبدو أن أبا تمام كان مدركاً لصنيعه هذا في الإغراب ، والاختراع في معاني الشعر تمام الإدراك ، يبدو ذلك من قوله[3] :

يَقُوْلُ مَنْ تَقْرَعُ أسْمَاعَهُ كَمْ تَرَكَ الأوَّلُ للآخِر

ومن أبيات أبي تمام التي لم تعجب الآمدي بما حوت من استعارة ، قوله يصور انتصار أبي سعيد التغري في معركة مع الروم ، وقد كان وقت الشتاء والثلوج متراكمة :

فَضَرَبْتَ الشِّتَاءَ فِي أخْدَعَيْهِ ضَرْبَةً غَادَرَتْهُ قَوْداً رَكُوْبَا

فتصويره في هذا البيت جاء حسن ، والأجمل منه قوله في البيت الذي يليه :

لَوْ أصَخْنَا مِنْ بَعْدِهَا لَسَمِعْنَا لِقُلُوْبِ الأيَّامِ مِنْكَ وَجِيْبَا [4].

---

[1] ـ الموازنة بين أبي تمام والبحتري ، ص: 107.
[2] ـ انظر من حديث الشعر والنثر ، ص : 135 . والفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص : 135 .
[3] ـ ديوانه، جـ: 2 ، ص : 66 .
[4] ـ السابق الصفحة نفسها .

ومن وسائل التصوير الفني التي استخدمها شعراء العصر العباسي فخرجوا بها عن المعتاد نجد التشبيه ، وهو وسيلة بيانية معبرة طالما استعان بها الشعراء في تصوير حالاتهم النفسية ، والشعورية ، وقد كانت البيئة العباسية على اتساعها وتنوع مظاهرها الحضارية والطبيعية ؛ مصدراً غنياً نهل منه الشعراء طرائف التشبيهات ونوادرها ، فهذا أبو نواس يقول في صفة الخمر[1]:

كَأَنَّهَا دَمْعةُ فِي عَيْنِ غَانِيةٍ مَرْهَاء رَقْرَقَهَا ذِكْرُ المُصِيْبَاتِ

تَنْزُو إذَا مَسَّهَا قَرْعُ المِزَاجِ كَمَا تَنْزُو الجَنَادِبُ أوْقَات الظَهِيْرَاتِ وَتَكْتَسِي

لُؤلُؤاتٍ مِنْ تَعَطُّفِهَا عِنْدَ المِزَاجِ شَبِيْهَاتٍ بِوَاوَاتِ

فقد ركّز أبو نواس الصور ، والتشبيهات ، وأتبع بعضها ببعض حتى كثرت ، وتزاحمت في البيت الواحد ، وعلى مثل هذا النمط نجد أبياتاً للقاضي التنوخي يصف فيها إحدى لياليه فيقول [2] :

وَلِيْلَةُ مُشْتَاقٍ كَأَنَّ نُجُوْمهَا قَدْ اغْتَصَبَتْ عَيْنَ الكَرَى وَهِي نُوَّمُ

كَأَنَّ عَيْن السَّاهِرِيْنَ لِطُوْلِهَا إذَا شَخَصَتْ لِلأنْجُمِ الزُّهْرِ أنْجُمُ

كَأَنَّ سَوَادَ اللَيْلِ وَالفَجْرُ ضَاحِكٌ يَلُوْحُ وَيَخْفَى أسْوَدٌ يَتَبَسَّمُ

وهكذا نجد أن دقة التصوير ، ورسم تفاصيل الصورة الفنية ، واستقصائها ، والإلمام بكافة جوانبها ، قد استهوت غالبية شعراء العصر العباسي ، فهذا ما لوحظ من تجديد جاءوا به مقارنة بمن سبقهم من شعراء العصر الجاهلي والإسلامي .

ومن تشبيهات الشاعر العباسي نجد نوعاً تشيع فيه الفلسفة ووسائل الإقناع الكلامية ، وأكثر ما نجده عند أبي تمام ، وابن الرومي ، والمتنبي ، منه قول أبي تمام :

لا تُنْكِرِي عَطَلَ الكَرِيم عَنْ الغِنَى فَالسَيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ العَالِي[3]

وقول ابن الرومي[4]:

وَقَدْ يَشِيْبُ الفَتَى وَلَيْسَ عَجِيْباً أنْ يُرَى النُّورُ فِي القَضِيْبِ الرَّطِيْبِ

---

[1] ـ ديوانه ، ص : 250.
[2] ـ اليتيمة ، جـ:2، ص: 337.
[3] ـ ديوانه ، جـ: 3، ص: 77.
[4] ـ ديوانه ، ص: 273.

كذلك قول المتنبي[1] :

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلُ الهُوَانُ عَلَيْه مَا لِجُرْحٍ بِمَيتٍ إيْلامُ

ومن تجديد الشاعر العباسي في إطار الصورة الفنية نجد اتساع ظاهرة التجسيم والتشخيص للمعنويات ، من ذلك قول بشار[2] :

لَعَمْرِي لَقَدْ أشْمَتَّ بِي عَيْنَ نَائِم فَنَامَ وَهِمِّي سَاهِرٌ يَتَوَهَّجُ

وقول أبي نواس [3] :

مَا لِرِجْلِ المَالِ أمْسَتْ تَشْتَكِي مِنْكَ الكَلالا

وقد كان ابن المعتز من أكثر المولعين بهذا التشخيص ، فهو كثير في شعره ومن شواهده عنده[4]:

كَأنَّ الْلَيْلَ وَالهِلالَ وَقَدْ بَدَتْ نُجُوْمُ السَّمَاءِ مُنْفَضَّه

رَامٍ مِنْ الزِنْجِ قَوْسُهُ ذَهَبٌ يَنْشُرُ مِنْهُ بَنَادِقَ الفِضَّه

وعلى هذا النمط ، وبهذه الأدوات نجد أن الشاعر العباسي ابتدع نظاماً جديداً في الصورة الفنية خرج به عن المألوف (واللافت للنظر أن الصورة الشعرية في القصيدة العباسية أصبحت جديدة لأنها أصبحت تعبر عن نفسية الشاعر ، ومن ثم فقد أصبحت وسيلة بنائية جيدة في تحقيق الخيط النفسي الرابط بين أركان القصيدة)[5] .

أما المحسنات البديعية من جناس ، وطباق ، ومقابلة فقد لقيت هي الأخرى اهتماماً وعناية كبيرتين ، وكان أكثر هذه المحسنات يمتاز كما عرف عن شعراء العصر العباسي بالغرابة ، والتعقيد ، والبعد في الصنعة ، من ذلك قول دعبل بن علي الخزاعي ، وما اشتمل عليه من طباق :

لا تَعْجَبِي يَا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ المَشِيْبُ بِرَأسِهِ فَبَكَا[6]

---

[1] ـ ديوانه ، جـ:3، 275.
[2] ـ ديوانه ، جـ:1ـ ص: 88.
[3] ـ ديوانه ، ص: 489.
[4] ـ ديوانه ، ص: 96.
[5] ـ التقليد والتجديد في الشعر العباسي ، ص: 217.
[6] ـ طبقات ابن المعتز ، ص: 264.

وكذلك ما في قول أبي نواس من طباق : رَأتْ

شَخْصَ الرَّقِيْبِ عَلَى النُّدَامَى فَأسْبَلَتِ الظَّلامَ عَلَى الضِّيَاءِ

فَغَابَ الصُّبْحُ مِنْهَا تَحْتَ لَيْلٍ وَظَلَّ المَاءُ يَقْطُرُ فَوْقَ مَاءِ[1]

ونجد أبا الفتح البستي يأتي بصورة غاية في الروعة في وصف كتاب تلقاه من أحد أصدقائه ، وهي صورة مشفعة بالطباق ، والجناس حيث قال[2] :

كِتَابُكَ سَيِّدِي جَلَّى هُمُوْمِي وَحَلَّ بِهِ اغْتِبَاطِي وَابْتِهَاجِي

كِتَابٌ فِي سَرَائِرِهِ سُرُوْرٌ مُنَاجِيهِ مِنْ الأحْزَانِ نَاجِي

فَكَمْ مَعْنَى مُضَمَّنُ فيه لَفْظٍ هُنَاكَ تَزَاوَجَا أيَّ ازْدِوَاجِ

كَرَاحِ فِي زُجَاجٍ بَلْ كَرَوْحٍ سَرَتْ فِي جِسْمِ مُعْتَدِلِ المِزَاجِ

والمتنبي كذلك نجده يأتي بصورة نقلها بالطباق ، حيث زاوج بينه وبين المقابلة[3] :

أزُوْرُهُمْ وَسَوَادُ اللَيْل يَشْفَعُ لِي وَأنْثَنِي وَبَيَاضُ الصُّبْح يُغْرِي بِي

لقد كان المتنبي رائداً لحركة الصناعة البديعية ، كما كان أبو تمام من قبله ، وقد تلاهما أبو العلاء المعري فلم يكن دونهما حذقاً ، ودقة تصرف ، بل أربى عليهما بأن طعم شعره بنظرات فلسفية عميقة .

وفي ختام الحديث عن التصوير الفني في الشعر العباسي ، نخلص إلى أن شعراء هذا العصر قد نهضوا به نهوضاً فنياً بارعاً ، واستغلوا كل وسائلها المتاحة قبلهم فخرجوا به عن العادة في تصويرهم ، وتصورهم للأشياء .

---

[1] - ديوانه ، ص: 328.

[2] - ديوانه ، ص: 16، 17.

[3] - ديوانه، ص:290 .

الفصل الرابع : البنية الهيكلية :

المبحث الأول: إطار القصيدة .

المبحث الثاني: عناصر بنية القصيدة .

إطار القصيدة

مقدمة

أعني بإطار القصيدة هنا الأشكال ، أو القوالب التي نظم عليها الشعراء شعرهم في هذا العصر ، وهذا غير أوزان الشعر وبحوره ، فالمقصود من الإطار هنا أشكال الشعر وقوالبه التي منها : القصيدة ، والمقطوعة الشعرية ، والأرجوزة ، إضافة إلى المسمط ، والمخمس ، والمزدوج ، والموشحة ، فهذه هي أطر الشعر في العصر العباسي ، التي اعتمد عليها غالبية الشعراء العباسيين في شعرهم كما سنبين .

سبق أن ذكرت أن شعراء هذا العصر مالوا في معظم شعرهم وخاصة غير الرسمي منه إلى البحور القصيرة ، والأوزان الخفيفة ، كما قاموا باستغلال ما توافر في البحور الخليلية من الزحافات والعلل ، مما كان قليل الاستعمال عند من سبقهم من شعراء .

فكما لجأ الشاعر العباسي إلى كل هذا ؛ لجأ كذلك إلى النظم في أطر شعرية جديدة مستحدثة ، وأخرى كانت قليلة الاستعمال في السابق .

وبالنظر إلى أطر الشعر التي نظم عليها الشعراء شعرهم ؛ نجد منها القصائد ، والمقطّعات ، والرجز ، والمسمطات ، فالقصائد والمقطوعات عُرفت في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي ، كما عُرف في الشعر الجاهلي فن الرجز الذي ، اعتبره بعض الدارسين أول صورة للشعر العربي ، أما الأطر الجديدة أو المستحدثة التي شاعت في هذا العصر فهي المسمطات ، والمخمسات ، والمزدوجات ، والموشحات ، وإن كان اشتهار الموشحة كأحد أطر الشعر العربي لم يكن في بيئة المشرق في عصر العباسيين ؛ وإنما كان ازدهارها عند المغاربة في بلاد الأندلس ، لهذا سيتم إبعاد فن الموشحة عن حيز هذه الدراسة لخروجها الطبيعي جغرافياً ، وسياسياً .

وسيتم تقسيم هذا الموضوع إلى ثلاثة محاور ، يتناول الأول القصائد والمقطوعات ، والثاني يتناول الرجز والمزدوجات ، كما سيتناول الثالث بقية أطر القصيدة العباسية من المسمطات ، والمخمسات ، والمزدوجات .

1 ـ القصائد والمقطوعات الشعرية

عرف الشاعر الجاهلي النظم على نظام المقطوعة الشعرية ؛ مثلما عرف القصيدة الطويلة ، وقد حدد بعض النقاد عدد الأبيات التي تصلح أن نطلق عليها اسم قصيدة ، مثل ابن رشيق الذي قال : (قيل : إذا بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة ... ، ومن الناس من لا يعد القصيدة إلا ما بلغ العشرة وجاوزها ، ولو ببيت واحد ... ، ويستحسنون أن تكون القصيدة وتراً وأن يتجاوز بها العقد)[1].

فمعنى هذا أن ما دون العشرة من الأبيات تكون مقطوعة شعرية لا قصيدة ، هذا ما اصطلح عليه غالبية النقاد قديماً ، وحديثاً .

إذاً فقد شاع هذان الإطاران ـ المقطوعة والقصيدة ـ في الشعر العربي منذ الجاهلية وصدر الإسلام ، وكذلك في العصر الأموي .

إلا أن الجديد في العصر العباسي هو كثرة لجوء الشعراء إلى النظم في إطار المقطوعة إذا قيست بالقصيدة (ويبقى فيما يتصل بشكل القصيدة في العصر العباسي ؛ أن نلاحظ استفاضة شكل المقطوعة الشعرية ، التي تتراوح بين البيتين والعشرة ،

[1] ـ العمدة جـ: 1، ص: 188، 189.

وهذا إطار ضيق يعبر فيه الشاعر عن خاطر راوده ، أو شعور حاد في لحظة من اللحظات ، أو معنى طريف جال بنفسه اقتنصه دون أن يتوسع فيه ، أو يولد منه ما يصنع قصيدة طويلة)[1].

فالمقطوعة الشعرية إضافة إلى ما ذكره الدكتور عز الدين إسماعيل ، قد تكون صورة طريفة عرضت للشاعر بسبب موقف ما فأراد تسجيلها ارتجالاً ، وفي نفس اللحظة ، فكان هذا هو سبب عدم مجيئها قصيدة مطولة ، أو قد يكون سببها حاجة الشاعر إلى الرد على خصم عن طريق البديهة ، وهذا موقف لا حاجة إلى الإطالة في تناوله .

وبالنظر إلى دواوين شعراء العصر العباسي ، نلاحظ أن ما قالوه من مقطوعات يربو عدده على ما قالوه من قصائد مطولة ، وكان السبب في ذلك أن استعمالهم للمقطوعة الشعرية كان في شعرهم اللاهي ؛ أي شعر الغزل ، والخمر والمجون ، ووصف مجالس اللهو والرياض ، لأن هذا الشعر يدخل ضمن الشعر الذي سيغنى به ، أما اللجوء إلى القصائد المطولة فكان أكثره في الشعر الرسمي من المدح ، أو الرثاء ، أو الفخر ، فكان هذا النوع من الشعر لا ينظم ارتجالاً ؛ وإنما يحتشد له الشاعر فكرياً وذهنياً لأنه موجه في عمومه إلى خاصة الدولة .

ومع هذا أقول إن إطار المقطوعة الشعرية قد أصبح في العصر العباسي قالباً فنياً يعول عليه الشعراء أكثر من أي عصر مضى (لأنه كان استجابة لذوق العصر من جهة ، وتحقيقا لشعبية الشعر وسرعة تناقله ودورانه على ألسن الناس من جهة أخرى ، وهكذا يتضح لنا أن شكل القصيدة في العصر العباسي قد تطور في اتجاهين متقابلين : اتجاه استشرق فيه بعض الشعراء العمل الملحمي فطالت قصائدهم حتى بلغت مئات الأبيات ، واتجاه آخر نحو إطار المقطوعة المحدودة الأبيات) [2]

وهناك من يذهب إلى القول بأسبقية معرفة الشاعر العربي للمقطوعة الشعرية قبل القصيدة ، وحجته أنه ما من ظاهرة فكرية ، أو أدبية في الحياة تولد كاملة متقنة دقيقة ، ولذا فلا شك في أن القصائد العربية ما ولدت كاملة ، فقد كانت أول أمرها

[1] ـ في الأدب العباسي الرؤية والفن ، ص : 418 .
[2] ـ المرجع السابق، ص: 418.

على شكل مقطوعات [1]، وهذا أمر طبيعي فالأشياء لا بد أن تبدأ من البسيط قبل أن تصل إلى المعقد ، فبدايات الشعر العربي كانت مقطوعات سواء كانت من الرجز أم غيره ، ثم تدريجياً اتخذت شكلها الكامل قبل الإسلام بمدة اختلف المؤرخون حول تحديدها تحديداً دقيقاً .

والأمثلة في الشعر العباسي وافرة على كلا الإطارين ، فمما نظم على إطار القصيدة المطولة التي بلغت المئات بل الآلاف ، نجد مزدوجة أبي العتاهية المسماة بذات الأمثال ، والتي بلغت أبياتها الأربعة آلاف بيت ، إلى غير ذلك من القصائد الطوال التي تنسب إلى شعراء العصر العباسي ، مثل قصيدة أبي تمام في وصف فتح عمورية ، ورائية أبي نواس في مدح العباس بن عبيد الله بن جعفر التي مطلعها:

أيَّهَا المُنْتَابُ مِنْ عُفُرِه لَسْتَ مِنْ لَيْلَي وَلا سُمُرِه [2]

وكذلك رائية بشار في فخره بالفرس على العرب ، التي مطلعها[3]:

هَلْ مِنْ رَسُوْلٍ مُخْبِرٍ عَنِّي جَمِيْعَ العَرَبِ

مَنْ كَانَ حَيّاً مِنْهُمُ وَمَنْ ثَوَى فِي التُّرَبِ

وكذلك دالية المتنبي في هجاء كافور .

إلى غير هذا من الشواهد التي غصت بها دواوين الشعراء العباسيين ، هذا إلى جانب ما احتوت عليه دواوينهم من المقطعات الشعرية ، التي شهدت رواجاً واسعاً في هذا العصر .

---

[1] ـ انظر تاريخ الأدب العربي ، بلاشير ، جـ : 2 ، ص: 227 .

[2] ـ ديوانه ، ص: 427.

[3] ـ ديوانه، ص: 72 .

2 ـ الرجز والمزدوجات :

الرجز هو أحد بحور الخليل العروضية ، وقد عده الدارسون أقدم أنواع القصيد (من المأثور أن أقدم القوالب الفنية عند جميع الأمم ، إنما نشأ نشأة غنائية ، ولا سيما في مجال العمل الجماعي ، لتتابع حركاته التي تبعث على التغني بمقاطع موزونة مصاحبة للعمل ، وميسرة له)[1] .

فالناظر لما أثر عن عرب الجاهلية من أغان ، يجد معظمها مقطوعات قصيرة من الرجز كتلك التي تغنوا بها عند الاستسقاء من العيون والآبار ، وغيرها مما أثاروا به همم الأبطال في الحروب ، أو حدوا به الركبان[2] . ومن هنا ذهب أكثر النقاد قدماء ومحدثين[3] ، إلى أنه أقدم بحور الشعر العربي ، ومنه تولدت الأوزان الأخرى ، جاء في تاج العروس : إنَّ أقدم القوالب الفنية العربية هو السجع أي النثر المقفى المجرد من الوزن ، ثم ترقى السجع إلى بحر الرجز[4]، وإلى هذا الرأي أيضاً ذهب المشتشرق بروكلمان ، الذي قال : (ينبغي أن يكون أقدم القوالب الفنية

---

[1] ـ فن الرجز في العصر العباسي، ص : 30 .

[2] ـ انظر الأغاني ، جـ : 21 ، ص : 95 .

[3] ـ من القدماء على سبيل المثال نجد ابن رشيق يقول:(زعم الرواة أن الشعر كله إنما كان رجزاً وقطعاً وأنه إنما قصد على عهد هاشم بن عبد مناف ، وكان أول من قصده مهلهل وامرؤ القيس).العمدة ، 1، ص: 189.
ومن المحدثين على سبيل المثال كذلك نجد أحمد حسن الزيات في كتابه تاريخ الأدب العربي يقول:(من المظنون أن العرب خطوا من المرسل إلى السجع ، ومن السجع إلى الرجز ثم تدرجوا من الرجز إلى القصيد) . ص : 28 ، 29 .

[4] ـ انظر تاج العروس ، جـ : 4 ، ص : 36 .

العربية هو السجع ، والسجع هو القالب الذي كان يصوغ العرافون ، والكهنة فيه كلامهم وأقوالهم ... ثم ترقى السجع إلى بحر الرجز)[1].

وفي الحقيقة أن سلاسة بحر الرجز ، وملاءمته لأكثر أنماط حياة العرب الأولى ، تدعم الرأي القائل بأن أساس الشعر العربي يرجع إلى هذا البحر ، إلا أن مثل هذه الأمور لا يمكن القطع ، أو الجزم فيها ، لأنها تحتاج إلى دليل ملموس كوثيقة ، أو نص يعود إلى تلك الفترة .

وبعد كل هذا أصبح بحر الرجز قالباً شعرياً ، أو إطاراً من أطر الشعر العربي ، كان في بدايته يدور حول المعاني الجاهلية ، ويكثر فيه احتشاد الألفاظ الغريبة من اللغة ، وفي العصر العباسي كذلك استخدمه الشعراء ، ونظموا عليه في مختلف الأغراض ، وكانوا في كل هذا يودون مجاراة القدماء في الاتيان بكل لفظ غريب ، فعلى سبيل المثال نجد أبا نواس يرثي به خلفاً الأحمر في قطعة أولها[2]:

لَوْ كَانَ حَيٌّ وَائِلاً مِنَ التَّلَفْ لَوَألَتْ شَغَواءُ فِي أعْلَى شَعَف[3]

وكذلك قصيدة العماني في مدح المهدي التي مطلعها[4]:

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِحَمْدِهِ مَنَّ عَلَى عِبَادِهِ بِعَبْدِهِ

مَهْدِيُّنَا الهَادِي الَّذِي بِرُشْدِهِ أصْبَحَ بَيْنَ غَوْرِهِ ونَجْدِه

كما مدح به العُمَّاني أيضاً الرشيد في كلمة منها[5] :

لـمَّا أتَانَا خَـبَرٌ كَالْشَـهْدِ شِيْـبَ بِمَـاءٍ نَقْرَةٍ صَلَنْدِ

جَاءتْ بِهِ البُرْدُ وَغَيْرُ البُرْدِ وَدَّعْتُ هِنْداً وَقَطِـيْنَ هِنْدِ

فقد اعتمد الشاعر العباسي على الغريب الذي هو من مميزات بحر الرجز ، في موضوعات الفخر ، والمدح ، والرثاء ، بعد أن كان مختصاً بموضوع الشعر الطردي . وقد كان الشاعر العباسي يتخلى عن كل هذه الوعورة ، وصعوبة الألفاظ حين ينظم في موضوعات شعبية كالخمر ، والغزل ، ففي هذه الحالة تكون ألفاظهم

---

[1] ـ تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان ، جـ : 1، ص : 51 .

[2] ـ ديوانه، ص: 577.

[3] ـ قال أبو نواس هذه القصيدة في رثاء خلف الأحمر ، وكان اقترح عليه رثاءه وهو حي ، وقد عرضها عليه فاستجودها.
معاني الكلمات ـ وائلاً : ناجياً ، ووألت : نجت، الشغواء : العقاب. الشعف : رأس الجبل. انظر ديوانه ، ص: 577. في الهامش.

[4] ـ طبقات ابن المعتز، ص: 110.

[5] ـ السابق، ص: 111.

سهلة متداولة على ألسنة الناس . ففي الغزل نجد أبياتاً من الرجز لمسلم بن الوليد كانت ألفاظها غاية في السهولة منها قوله[1]:

يَا أيُّهَا المَعْمُوْدُ قَدْ شَفَّكَ الصُّدُوْدُ

فَـأنْتَ مُسْتَهَامٌ حَالَـفَكَ السُّهُوْدُ

أشْـهَدُ أنَّ قَلْبِي عَلَى الْهَوَى جَلِيْدُ

يَحْمِلُ كُـلَّ هَذَا وَحِمْلهُ كَـؤودُ

لَوْ كَانَ مِنْ جِلْمُوْدٍ تَفَتَتّ الجِلْمُوْدُ

ثم ينتقل في أرجوزته ذاتها إلى صفة الخمر فيقول[2]:

وَسَـادَةٌ سُـرَاةٌ مَـا فِـيْهُمُ مَسُوْدُ

يُسْقَوْنَ صَفْوَ رَاحٍ لَذِيْـذُهَا مَوْجُـوْدُ

هَذَا الخُلُوْدُ عِنْدِي لَوْ دَامَ لِي الخُلُوْدُ

ومثل هذه اللغة السهلة نلحظها كثيراً في رجز أبي العتاهية ، بل كانت هي أهم ما يميز شعره عامة .

ومما يمكن اعتباره تجديداً في فن الرجز أنه في العصر الجاهلي كان على هيأة مقطوعات قد تكون في أغلبها مرتجلة ، ولم يكن للأرجوزة كذلك نهج متعارف عليه ، سوى الإكثار فيها من الغريب ، أما في العصر العباسي فقد طالت الأرجوزة واتخذت نوعاً من البناء المحكم ، ومن أشهر أراجيز هذا العصر التي يغلب عليها البناء المحكم نجد أرجوزة بشار(يا طلل الحي بذات الصمد)[3]، وأرجوزة أبي تمام : (طلل الجميع لقد عفوت حميدا)[4]، وقد شاع استعمال فن الرجز بالدرجة الأولى في شعر الطرد ، والشعر التعليمي ، والأخلاقي .

ومن الفنون التي استغل فيها الشعراء بحر الرجز - وهذا جديد - فن السيرة ، مثلما فعل ابن المعتز عندما نظم أرجوزة في سيرة المعتضد ، وهي أرجوزة طويلة

---

[1] - ديوانه ، ص : 194 .
[2] - السابق، الصفحة نفسها .
[3] - الشعر والشعراء ، جـ : 2 ، ص : 180 .
[4] - ديوانه ، ص: 110 .

فـي نحـو عشـرين ، وأربعمائـة بيـت مـن المـزدوج ، بـدأها بالحمـد والثنـاء ثـم حـدد موضوعه فقال[1]:

هَـذَا كِـتَابُ سِـيَرُ الإِمِامُ مُهَـذَّباً مِـنْ جَوْهَرِ الكَلامِ

أعْنِي بِهِ العَبّاسَ خَيْرُ الخَلْق لِلْمُلكِ قَـوْلٌ عَـالِمٌ بِالحَـقِّ

ومع تقدم العصر ، وازدياد شيوع هذا البحر ، واتساع دائرة اهتمام الشعراء به حتى أصبح منافساً للقصيد ، نلاحظ لجوء الشعراء في أراجيزهم وخاصة في القرن الثالث والرابع الهجريين إلى الإسراف والإغراق في الصنعة اللفظية من التجنيس ، والمشاكلة ، فهذا أبو تمام يقول[2]:

وَعَاذِلٌ عَذَلْتُهُ فِي عَـذْلِهِ فَظَنَّ أنّي جَاهِلٌ مِنْ جَهْلِهِ

مَا غَبَنَ المَغْبُوْنَ مِثْلَ عَقْلِهِ وَبَلَـدٍ نَائِي المَـحَلِّ مَحْلِهِ

رَمَيْتُهُ مِـنْ السُّـرَى بِنُبِلِهِ بِـبَازِلٍ مُقَابِـلٍ فِي بَزْلِهِ

مِثْلِي سَرَى فِي مِثْلِهِ بِمِثْلِهِ

ومثل أبـي تمـام نجـد المتنبـي فـي القرن الرابـع الهجـري ، يـأتي بجديـد المعـاني فـي أراجيزه ، مثل قوله [3] :

مَا أجْدَرَ الأيَّامَ وَالَـْلَيَالِي

بِأنْ تَقُوْلَ مَالَهُ وَمَالِي

لا أنْ يَكُوْنَ هَكَذَا مَقَالِي

فالمتنبي هنا يدعو الأيام للتظلم منه ، لأنه لم يشتكِ أو يتظلم منها .

ويلحق بالشعر الذي نظم على إطار الرجز ، نوع آخر من الشعر اصطلح على تسميته بالمزدوج ، وهو نمط لم يعرف في الشعر العربي القديم ، فهو من ناحية يعتبر نوعاً من الأراجيز ، إلا أن قافيته تتغير مع كل بيت ، على أن يكون البيت مصرعاً بحيث تتفق قافية الشطر الأول مع قافية الشطر الثاني ، ومن هنا تحدث

---

[1] - ديوانه ، ص: 430.

[2] - ديوانه ، ص: 530، 531.

[3] - ديوانه ، جـ: 4 ، ص : 27 .

موسيقى داخلية في البيت الواحد ، يكون فيها تعويض عن اطّراد القافية في القصيدة بكاملها[1].

وقد يأتي هذا المزدوج على وزن بحر آخر غير الرجز ، مع بقاء وحدة الموضوع الذي استعمل الشعراء فيه الرجز والمزدوج ، حيث خصصوهما في الغالب للشعر التعليمي ، وشعر الزهد والأخلاق والقصص ، وأكثر الدارسون من الاستشهاد له بمزدوجة أبي العتاهية (ذات الأمثال) ، التي سبق أن استشهدت بشيء منها في موضع سابق .

3 ـ أطر أخرى للقصيدة العباسية:

إلى جانب ما تناولته من نظام القصيدة المطولة ، والمقطوعة الشعرية ، والأرجوزة ، والمزدوجة ؛ شاعت أشكال أخرى للقصيدة في شعر العصر العباسي ، وهي أشكال ، أو أطر قد تكون نادرة ، أو معدومة قبل هذا العصر ، إلا أن شعراء العصر العباسي قد أفاضوا النظم فيها .

ومن هذه الأطر المستحدثة نجد المسمطات :

وهي قصائد تتألف من أدوار ، كل دور يتركب من أربعة أشطار أو أكثر ، وتتفق أشطار كل دور في قافية واحدة ، ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية تتكرر في الشطور الأخيرة من كل دور.

وغالباً ما يكون المسمط مجموعة من المقطوعات ، يتراوح عدد أبياتها بين الثلاثة والخمسة ، والشرط الرئيس فيها أن تبنى الشطرات الأخيرة من كل مقطوعة على قافية واحدة ، وتسمى هذه القافية عمود القصيد ، ولا يشترط في المسمط أن يكون من الرجز كما يقول ابن رشيق[2] . ولدعبل بن علي الخزاعي مسمط في مدح علي رضي الله عنه ، يسير فيه على هذا النهج ، ومما قاله فيه[3] :

((أبُو تُرَابٍ حَيْدَرَه)) ذَاكَ الإمَامُ القَسْوَرَه

مُبِيْدُ كُلَّ الكَفَرَة لَيْسَ لَهُ مُنَاضِل

---

[1] ـ انظر العصر العباسي الأول ، ص: 196، 197.

[2] ـ انظر العمدة ، جـ: 1، ص: 118.

[3] ـ شعر دعبل بن علي الخزاعي ، ص: 273.

مُبَارِزٌ مَا يَرْهَب وَضَيْغَمٌ مَا يُغْلَب
وَصَادِقٌ لا يَكْذِب وَفَارِسٌ مُحَاوِل

وإلى جانب المسمط نظم الشعراء العباسيون في إطار شعري آخر ، هو المخمس ، وهو أن يؤتى بخمسة أقسام ، أو أشطار كلها على وزن واحد ، تتفق الأربعة الأولى في القافية ، وتكون قافية الخامس مغايرة لها ، ثم يؤتى بخمسة أشطار أخرى بنفس وزن الأشطار الأولى مع اختلاف القافية ، إلا أن قافية الشطر الخامس تكون على طول القصيدة ، ومن شواهد ذلك قول أبي علي تميم بن المعز الأمير الفاطمي :

دَمُ العُشَّاقِ مَطْلُوْلُ وَدَيْنُ الحُبِّ مَمْطُوْلُ
وَسَيْفُ الْلَحْظِ مَسْلُوْلُ وَمَبْدا الحُبِّ مَعْزُولُ
وَإنْ لَمْ يُصْغِ لِلائِمْ
إذَا لَمْ يَظْهَرُ الحُبُّ وَلَمْ يَنْهَتِكُ الصَّبُّ
وَيُفْشِي سِرَّهُ القَلْبُ فَجِمْلَةُ مَا ادَّعَى كَذِبُ
فَبُح يَا أيُّهَا الكَاتِم
وَأحْوَرُ سَاهِرُ الطَّرْفِ يَفُوْقُ جَوَامِع الوَصْفِ
مَلِيْحُ الدِّلِّ وَالظُّرْفِ جَنَتْ أَلْحَاظُهُ حَتْفِي
فَمَنْ يَعْدِي عَلَى ظَالِم[1].

فرويُّ الشطرة الخامسة كما هو واضح هو حرف الميم دائماً عند نهاية كل مقطوعة ، إلا أن قوافي الأشطر الأخرى قد تتغير من قسم إلى آخر.

ومن الأطر التي استخدمها الشاعر العباسي ، هناك ما يطلق عليه اسم المربع ، أو الرباعيات ، أو التربيع : وهي وحدة تتألف من أربعة شطور ، يتفق أولها وثانيها ، ورابعها في قافية واحدة ، أما الشطر الثالث فقد يتخذ نفس القافية ، وقد لا يتخذها[2] .

[1] ـ ديوانه، ص: 368. واليتيمة ، جـ :1، ص: 441.
[2] ـ انظر العصر العباسي الأول ، ص: 197.

فنظام التربيع إذاً هو ما اتفقت فيه قوافي أشطار ثلاثة في بيتين ، وشذ رابع مثل قول ابن المعتز[1] :

يَا بْـنَ بِشْرٍ جَفَوْتَا ظَـالِماً وَاقْـتَدَيْتَا

وَاشْتَهَيْـتَ فِـرَاقِي حَسْبُكَ المَوْتُ فَوْتَا

وقوله أيضاً [2]:

قُلْ لِقُرَيْشٍ دَعِي الإِسْرَافَ وَاقْتَصِدِي إنَّ عَلِـيّاً وَعَبَّاسـاً يَدِي وَيَدِي

إنْ تَسْخَطُوْهُمْ تَرَوا أسْيَـافَنَا مَعَهُمْ إنَّا وإيَّـاهُمُ رُوْحَـانِ فِي جَسَدِ

وإلى جانب ذلك أدخل شعراء هذا العصر على أشكال القصيدة العربية نظام الدوبيت ، وهو نظام يقوم الشاعر فيه بتقسيم قصيدته إلى أقسام قد تكثر أو تقل ، يشتمل كل قسم منها على أربعة أشطر ؛ تكون على قافية موحدة ، وتسير القصيدة إلى نهايتها على هذا النظام الرباعي من القافية المشتركة في كل بيتين منها [3]، مثال ذلك قول ابن وكيع التنيسي في إحدى قصائده [4]:

رِسَالَةٌ مِنْ كَلِفٍ عَمِيْدِ حَيَاتُهُ فِي قَبْضَةِ الصُّدُوْدِ

بَلَّغَهُ الشَّوْقُ مَدَى المَجْهُوْدِ مَا فَوْقَ مَا يَلْقَاهُ مِنْ مَزِيْدِ

* * *

جَارَ عَلَيْهِ حَاكِمُ الغَرَامِ فَدَقَّ أنْ يُدْرَكَ بِالأوْهَامِ

فَلَوْ أتَاهُ طَارِقُ الغَرَامِ لَمْ يَرَه مِنْ شِدَّةِ السُّقَامِ

* * *

لَهُ اهْتِزَازٌ وَارْتِيَاجٌ وَطَرَبْ لِوَجْهِ مَنْ أوْرَثَهُ طُوْلَ الكَرَب

فَهَلْ سَمِعْتُمْ فِي أحَادِيْثِ العَجَبْ بِمَنْ مُنَاهُ قُرْب مَنْ مِنْهُ العَطَب

وهكذا فهذه لمحة وجيزة وقفت فيها على بعض إسهامات الشاعر العباسي ، وما قام به من إضافات على شكل القصيدة العباسية وإطارها ، وهي إسهامات لا يمكن جحودها على الشاعر العباسي ، لأنها كانت نتيجة طبيعية لعقليات هؤلاء الشعراء ،

---

[1] ـ ديوانه ، ص: 93.

[2] ـ ديوانه ، ص: 153.

[3] ـ انظر اتجاهات الشعر في القرن الرابع الهجري ، ص: 388.

[4] ـ اليتيمة، جـ:4 ، ص: 213.

هذه العقليات التي تغذت بسيل من الثقافات والحضارات المحلية والوافدة ، فانعكس هذا على نتاجها الشعري كما رأينا .

المبحث الثاني :

عناصر بنية القصيدة

بعد أن وقفت في المبحث السابق على إطار القصيدة ، أو شكلها ، أو بنائها أو قالبها في هذا العصر ، بقي أن ننظر في هذا المبحث الذي خصص لهيكل القصيدة ، للعناصر الفنية لبناء القصيدة العباسية .

فللقصيدة العربية عناصر تعارف عليها الشعراء والنقاد منذ العصر الجاهلي وحتى العصور المتأخرة ، وهذه العناصر هي : المطلع أو المقدمة ، والتخلص من غرض لآخر ، ثم الغرض الشعري والخاتمة.

فهل طرأ تغيير على هذه العناصر في قصيدة العصر العباسي ؟ أم أنها بقيت على ما كانت عليه عند القدامى من الشعراء ؟. فهذا ما سنحاول التعريف به في هذا المبحث .

1 ـ المطلع والمقدمة

عرف من عناصر بناء القصيدة العربية تقليد قديم سمي بالمطلع ، أو المقدمة وقد نوه النقاد القدامى على ضرورة اهتمام الشاعر بمطلع قصيدته ، فهو بمثابة العنوان ، وهو الذي يقرر ما إذا كانت هذه القصيدة تستحق المداولة ، أو تسترعي انتباه المتلقين ، فالشعر (قفل أوله مفتاحه ، وينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره فإنه أول ما يقرع السمع ، وبه يُستدل على ما عنده من أول وهلة)[1].

وكذلك فالمقدمة الطللية ، أو الغزلية تقليد اهتم به الشعراء في العصور السابقة وفي هذا العصر في أكثر الأغراض الشعرية وخاصة في شعر المدح ، إلا أن ما يسترعي الانتباه هو أن مقدمات قصائد هذا العصر لم تجمد في القالب التقليدي القديم ؛ ولكن طرأت عليها جملة من التعديلات ، والتحويرات ، مما أصبغ عليها خصوصيتها إذا ما قورنت بمقدمات قصائد العصور السابقة .

فقد تراوحت مقدمات قصائد العصر العباسي بين التقليد لمقدمات قصائد شعراء قدامى ، وبين التجديد مثل أن يفتتح الشاعر قصيدته بالوقوف على القصور العامرة بدل الآثار البالية ، وكذلك بالمقدمة الخمرية أو الغزل بالمذكر ، أو بوصف الطبيعة والرياض الناضرة بدل الفيافي والصحارى الموحشة ، كما لوحظ أن من الشعراء من يجعل من مناسبة القصيدة مقدمة لها ، كما أن الشاعر العباسي قد يصف السفينة في مقدمة قصيدته بدل الناقة ، ومن شعراء هذا العصر أيضاً من استغنى عن هذه

[1] ـ العمدة ، جـ:1، ص: 218.

المقدمة تماماً ، حتى بلغ الأمر ببعض الشعراء أن جعلوا من مقدمة قصائدهم دعوة لهجر المقدمة الطللية [1] .

ومن الأسباب الرئيسية وراء اختفاء المقدمة الطللية في بعض قصائد هذا العصر ؛ التحول الواسع من إطار القصيدة المطولة إلى نظام المقطوعة ، ومن ملامح التجديد عند من افتتح قصيدته بالمقدمة الطللية في العصر العباسي أن تخفف من الكثير من عناصر هذه المقدمة التي عرفت بها قديماً التي أوضحها ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء [2] .

ولتوضيح ما سبق أن أشرت إليه من ملامح التجديد التي أصابت المقدمة في قصيدة العصر العباسي ، سأقف عند هذه الملامح مع بعض الأمثلة .

فمن تقليد الشاعر العباسي لمقدمات القدامى مثلاً ، نأخذ قول أبي نواس [3] :

أَلَمْ تَرْبَعْ عَلَى الطَّلَلِ الطِّمَاسِ عَفَاهُ كُلُّ أَسْحَمَ ذِي أَرْتِجَاسِ

وَذَارِي التُّرْبِ مُرْتَكِمٌ حَصَاهُ نَسِيْجُ المِيْثِ مُعْنَقَةُ الدِّهَاسِ

سِوَى سُفْعٍ أَعَارَتْهَا اللَّيَالِي سَوَادَ اللَّيْلِ مِنْ بَعْدِ اغْبِسَاسِ

وَأَوْرَق حَالَفَ المَثْوَاةَ هَابٍ كَضَاوِ الفِرَاخِ مِنَ الهُلاسِ[4]

فأبو نواس وهو رائد الثورة على الأطلال ، نجده يأتي بمقدمة طللية مشفّعة بقاموس وعر من الألفاظ ، وهذا يدل على تمكّن شعراء هذا العصر ، وأصالتهم ، وقدرتهم الفائقة على مجاراة القدامى في الاتيان بكل غريب من اللفظ ، ومتين من التراكيب ، وفي هذا إشارة أيضاً إلى أن الشعبية والرقة التي تلاحظ على غالبية الشعر العباسي ، لم تكن صادرة عن عجز وضعف لدى الشاعر العباسي ، بقدر ما هي استجابة لظروف العصر ، ومماشاة لما حدث فيه من تطور .

ومثل هذه القدرة الفائقة على تقليد الشاعر الجاهلي في هذا العصر نجدها أيضاً عند مسلم بن الوليد حين يقول[1] :

---

[1] ـ انظر المبحث الأول في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

[2] ـ انظر الشعر والشعراء، جـ : 1 ، ص : 31 .

[3] ـ ديوانه ، ص : 522 .

[4] ـ **معاني الكلمات** ـ ألم تربع : ألم تقف . الطماس : الدارس . الأسحم : السحاب . الارتجاس : الرعد . ذاري التراب : الريح. الميث: جمع ميثاء الأرض السهلة. المعنقة: الجبل الصغير من الرمل. الاغبساس: بياض فيه كدرة . الضاوي: الهزيل . الهلاس: بالضم الضمور أو مرض السل.

هَاجَتْ وَسَاوِسُهُ بِرَوْمَةَ دُوْرُ دُثُرٌ عَفَوْنَ كَأَنَّهُنَ سُطُوْرُ

أهْدَى لَهَا الإقْفَارَ حَتَّى أوْحَشَتْ مِنْ بَعْدِ أنْسٍ زَائِرٌ وَغَيُوْرُ

جَرَتِ الرِّيَاحُ بِهَا وَغَيَّرَ رَسْمَهَا هزمُ الكَلا دَانِي الرَّبَابِ مَطِيْرُ

أبَكَى نَعَمْ أبْكَاهُ رَبْعٌ بِالْلِوَى تَسْفِي عَلَيْه مَعَ العَجَاجِ المُوْرُ

مغايرة هذه المقدمة لما عُرف عن مسلم بن الوليد من شعر سلس رقيق ، أبعد ما يكون عن هذه المعاني الجاهلية القديمة .

ومن شعراء العصر العباسي من قدم لقصيدته بذكر أحد قصور الخلفاء ، مثلما فعل أشجع السلمي من ذكره لقصر الخليفة الرشيد في افتتاحه قصيدة مدحه فيها :

قَصْرٌ عَلَيْهِ تَحَيَّةٌ وَسَلامُ نَشَرَتْ عَلَيْهِ جَمَالَهَا الأيَّامُ

فِيْهِ اجْتَلَى الدُّنْيَا الخَلِيْفَةُ وَالْتَقَتْ لِلْمُلْكِ فِيْهِ سَلامَةٌ وَدَوَامُ[2]

وإلى جانب القصور في مقدمات القصائد العباسية ؛ ذكر الشعراء كذلك ما يلحق بالقصور من رياض وبرك ، مثلما فعل البحتري الذي افتتح إحدى قصائده بوصف بركة في قصر المتوكل وهي التي عرفت بالبركة الجعفرية ، ومطلعها [3]:

يَا مَنْ رَأى البِرْكَةَ الحَسْنَاءَ رُؤيَتَهَا وَالآنِسَاتِ إذَا لاحَتْ مَغَانِيْهَا

ومما وصفه الشاعر العباسي في مقدمة قصيدته مظاهر الحضارة الطارئة على الحياة العربية في العصر العباسي ؛ مثل السفينة التي استبدلوها بركوب الناقة والجمل ، من هذا ما قام به بشار بن برد الذي وصف سفينة ركبها عبر الفرات قاصداً الأمير يزيد بن هبيرة [4] . كما أكثر الشاعر العباسي في مقدمات قصائده من المحسنات البديعية ، والصور الرقيقة المستحدثة ، والبعد كذلك عن وعورة الألفاظ مثال ذلك قصيدة لمسلم بن الوليد قالها في مدح زيد بن مسلم الحنفي ، وهي قوله :

أ أُعْلِنُ مَا بِي أمْ أسِرُّ فَأكْتُم وَكَيْفَ وَفِي وَجْهِي مِنَ الحُبِّ مَعْلَمُ

أثِيْبُوا بِوِدٍّ أوْ أثِيْبُوا بِهَجْرَةٍ وَلا تَقْتُلُوْنِي إنَّ قَتْلِي مُحَرَّمُ

طَفَوْتُ عَلَى بَحْرِ الْهَوَى فَدَعَوْتُكُمْ دُعَاءَ غَرِيْقٍ مَا لَهُ مُتَعَوَّمُ

---

[1] ـ ديوانه ، ص: 220.
[2] ـ طبقات ابن المعتز ، ص: 252 .
[3] ـ ديوانه ، ص : 1037.
[4] ـ انظر ديوانه ، جـ : 1 ، ص : 147 .

رَكِبْتُ عَلَى اسْمِ اللهِ بَحْرَ هَوَاكُمُ فَيَارَبِّ سَلِّمْ أَنْتَ أَنْتَ المُسَلِّمُ[1]

فقد حشد ابن الوليد في هذه المقدمة كثيراً من التشبيهات ، والجناسات ، والطباقات حتى يصل إلى اثني عشر بيتاً قبل أن يدخل في غرضه الأساسي .

ومن المقدمات المستحدثة في هذا العصر ، افتتاح بعض الشعراء لقصائدهم بالمقدمة الخمرية بدل النسيب ، والتشبيب ، وذكر الأطلال ، وكان المقدم في هذا المضمار أبو نواس ، الذي يقول في إحدى قصائده على سبيل المثال :

يَا خَاطِبَ القَهْوَةُ الصَّهْبَاءُ يَمْهُرُهَا بِالرَطْلِ يَأخُذُ مِلأهُ ذَهَبَا

قَصَّرْتَ بِالرَّاحِ فَاحْذَرْ أنْ تُسَمِّعَهَا فَيَحْلِفُ الكَرْمُ أنْ لا يَحْمِل العِنَبَا[2]

ومن أهم ما نلاحظه من تطور على مقدمة القصيدة العباسية ؛ ما قام به بعض الشعراء من جعل مناسبة القصيدة مقدمة لها ، كما فعل أبو تمام في قصيدته التي وصف فيها فتح عمورية ، والتي افتتحها بقوله[3]:

السَّيْفُ أصْدَقُ أنْبَاءً مِنَ الكُتُب فِي حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ واللَّعِب

كما أن الشاعر العباسي لجأ في كثير من قصائده لمقدمات حكمية فلسفية ، نجد أمثالاً لهذا في شعر المتنبي ، والشريف الرضي ، وأبي العلاء المعري ، فالشريف الرضي – على سبيل المثال - يفتتح قصيدة له في مدح الوزير أبي القاسم علي بن أحمد بمقدمة حكمية وعظية قال فيها [4]:

تَأبَى الْلَيَالِي أنْ تُدِيْمَا بُؤساً بِخَلْقٍ أوْ نَعِيْمَا

وَالمَرْءُ بِالإقْبَالِ يَبْ لُغْ وَادِعاً خَطَراً عَظِيْمَا

وَيَنَالَ بُغْيَتَهُ وَمَا أنْضَى الذَّمِيْلَ وَلا الرَّسِيْمَا

فَإذَا انْقضَى إقْبَالُهُ رَجَعَ الشَّفِيْعُ لَهُ خَصِيْمَا

وَهُوَ الزَّمَانُ إذَا نَبَا سَلَبَ الَّذِي أعْطَى قَدِيْمَا

---

[1] - ديوانه ، ص : 177 .

[2] - ديوانه ، ص: 91.

[3] - ديوانه، ص: 40 . أما عن مناسبة هذه القصيدة : فقد كان المنجمون قد حكموا أن المعتصم لا يفتح عمورية ، وراسلته الروم بأنا نجد في كتبنا أنه لا تفتح مدينتنا إلا وقت إدراك التين والعنب ؛ وبيننا وبين ذلك الوقت شهور ، فأبى المعتصم أن ينصرف ، وأكب عليها ففتحها ، فأبطل ما قالوا . انظر الديوان ، جـ:1 ، ص: 40 .

[4] - اليتيمة ، جـ : 3 ، ص : 140.

كما أن من المقدمات المستحدثة في هذا العصر ، افتتاح القصائد بوصف الطبيعة ، وليس أشهر من الأمثلة على ذلك من قصيدة البحتري التي مطلعها[1] :

أَتَاكَ الرَّبِيْعُ الطَّلْقُ يَخْتَالُ ضَاحِكاً مِنَ الحُسْنِ حَتَّى كَادَ أنْ يَتَكَلَّمَا

ومثلها مقدمة لأبي تمام في وصف الطبيعة ، وأثر المطر على الأرض المجدبة حين قال [2]:

رَقَّتْ حَوَاشِي الدَّهْرِ فَهِي تَمَرْمَرُ وَغَدَا الثَّرَى فِي حِلْيِهِ يَتَكَسَّرُ

وما عدا هذه المقدمات المستحدثة في القصيدة العباسية ؛ يلاحظ على من أبقى على المقدمة التقليدية أنه تخفف ، أو تحرر فيها من الكثير من أصول المقدمة الطللية ، أي أن البعض لم يلتزم تماماً في مقدمة قصيدته بالغزل ، والنسيب ، وذكر الديار ، والأطلال ، والظعن ، ووصف الناقة ، والرحلة عبر الصحراء ، وما يصاحبها من مخاطر ، ولكنه استغنى عن بعض هذه العناصر ، وذكر بعضها الآخر ، يقول في ذلك الدكتور شوقي ضيف عن بشار بن برد (وكلما أوغلنا معه - أي بشار بن برد - في العصر العباسي أحسسنا بنموها - أي العناصر المستحدثة - فقد أخذ يتخفف من مشاهد الصحراء ، ومن المقدمات الطللية مكتفياً بالغزل)[3] .

كما اتسمت هذه المقدمات بالقِصر ، ولم تعد تستغرق إلا الأربعة أو الخمسة أبيات ، ومن شواهد ذلك قصيدة لأبي الخطاب البهدلي ، التي مدح بها الهادي فقدم لها بخمسة أبيات هي [4] :

مَاذَا يُهِيْجُكَ مِنْ دَارٍ بِمُحْنِيَةٍ كَالبُرْدِ غَيَّرَ مِنْهَا الجِدَّةَ العُصُرُ

عَفَّتْ مَعَارِفَهَا رِيْحٌ تُنَسِّفُهَا حَتَى كَأَنَّ بَقَايَا رَسْمُهَا سُطُرُ

أزْرَى بِجِدَّتِهَا بَعْدِي وَغَيَّرَهَا هُوْجُ الرِّيَاحِ الَّتِي تَغْدُو وَتَبْتَكِرُ

دَارٌ لِوَاضِحَةِ الخَدَّيْنِ نَاعِمَةٌ غَرْثَى الوِشَاحُ لَهَا فِي دِلِّهَا خُفُرُ

كَأَنَّهَا دُرَّةٌ أغْلَى التُّجَارُ بِهَا مَكْنُوْنَةً رَبِحُوا فِيْهَا وَمَا خَسِرُوا

---

[1] - ديوانه ، ص : 736.
[2] - ديوانه، ص: جـ:2 ص: 191 .
[3] - العصر العباسي الأول ، ص :211 .
[4] - طبقات ابن المعتز ، ص : 133 .

ثم يقفز بعد هذه الأبيات إلى مدح الخليفة بشكل مباشر ، انقطع فيه عن النسيب دون حسن تخلص ، ليقول في البيت الذي يليها [1]:

قُلْ لِلْخَلِيْفَةِ مُوْسِى : إنَّ نَائِلَهُ جَزلٌ هَنِيٌّ وَمَا فِي سَيْبِه كَدَرُ

ليكمل واحداً وعشرين بيتاً في مدح هذا الخليفة ، ومثل هذا الاقتضاب في المقدمة الطللية نجده عند أبي دلامة في قصيدة له مدح بها العباس بن محمد عم المهدي ، حيث وقف على الأطلال فيها في ثلاثة أبيات فقط[2].

وهكذا فقد كان في هذا العرض بعض الإيضاح لما طرأ على مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي من تطور وتجديد ؛ كان في مجمله استجابة لتطور عام وشامل أصاب كافة أوجه الحياة في العصر العباسي . ويبقى الحديث عن بقية عناصر القصيدة ، وهي التخلص ، والغرض الشعري في الصفحات التالية .

[1] ـ الساق الصفحة نفسها .
[2] ـ انظر الأغاني ، جـ : 18 ، 151.

التخلص

التخلص أو الخروج من موضوع لآخر في القصيدة الواحدة ؛ أحد العناصر التي عرفت بها القصيدة العربية منذ العصر الجاهلي ، فما دام هناك مقدمة ، أو توطئة للموضوع الرئيسي في القصيدة بالغزل ، والنسيب ، ووصف الرحلة ... إلخ ، فلابد أن يكون هناك تخلص ، أو خروج يناسب بين هذه الموضوعات في قصيدة متعددة الأغراض ، لأن الشاعر القديم كان يشبب ، ويتغزل ، ويقف على الطلل كما يصف الصحراء ، ورحلته في غياهبها ، وصيده ما يعترض طريقه من الطرائد ، ثم نجده يمدح ، أو يفتخر ، أو يهنّئ ، وقد يهجو في نفس القصيدة ، فما الضابط الذي ينتظم كل هذه الموضوعات ؟ إنه التخلص ، وحسن التنقل من غرض لآخر .

ولكن ما موقف الشاعر العباسي من هذا العنصر ؟ هل ترسم خطا سابقيه ؟ أم أنه عبث به كما لاحظنا مع المقدمة الطللية ؟.

الحقيقة أن بعض التطور قد أصاب هذا العنصر على يدي الشاعر العباسي ، فقد تحول عند شعراء هذا العصر عن هيأته القديمة المتمثلة في (دع ذا) أو (فعد عن ذا)[1] إلى مظهر آخر يمتاز باللطف ، والتحايل ، لا يكاد يشكل فاصلاً يبين أن الشاعر قد انتقل هنا من غرض لآخر ، وكمثال على ذلك نأتي بأبيات لعوف بن محلم الخزاعي ، من قصيدة له في مدح عبد الله بن طاهر ، فنلاحظ أن عوفاً ابتدأ قصيدته مفتخراً بنفسه ، وهمته ، وخلقه ، وتعفف نفسه عن السؤال ، ثم يقول إنه في هذه الصفات يشبه ممدوحه عبد الله ، ومن هنا يسترسل في مدح هذا الأمير ، وهذه أبياته التي تبين ذلك [2]:

إلَيْكَ فَمَا حَظِّي لِغَيْرِي بِصَائِرِ وَلا أجَلِي إنْ حَمَّ عَنِّي بِقَاصِرِ

---

[1] ـ انظر العمدة ، جـ : 1، ص : 239 .
[2] ـ طبقات ابن المعتز ، ص: 188.

أعُـفُّ وأسْتَـغْنِي وَإنَّـي لَمُقْـتِر فَتَسْتُرُ عَفَّاتِي عَلَيَّ مَـفَاقِرِي

وَإنِّي لَيَأتِـيْنِي الغِـنَى غَيْر ضَارِعٍ فَأدْنُو بِهِ مِنْ صَاحِبِي وِمُجَاوِرِي

لِسَـانِي وِقَلْبِي شَـاعِرَانِ كِلاهُمَا وَلَكِـنَّ وَجْهِي مُفْعَمٌ غَيْر شَاعِر

وَلَوْ كَانَ وَجْهِي شَاعِراً أكْسَبَ الغِنَى وَلَكِنَّ وَجْهِي مِثْلُ وَجْهِ بْنِ طاَهِر

فَتَى يَسْتَحِي أنْ يَخْدِشَ الذَّمُ عِرْضَهُ وَلا يَـتَّقِي حَـدَّ السُّيُوْفِ البَوَاتِر

ومثل هذا الشاهد لا يعني أن الشاعر العباسي لم يلجأ لاستخدام أسلوب القدامى في التخلص من غرض لآخر ؛ بل نجد له مثيلاً عند أبي دلامة ، الذي مدح العباس بن محمد ، فبعد وقوفه على الطلل في ثلاثة أبيات يستعمل في البيت الرابع الأسلوب القديم المتمثل في : (دع ذا) وأبياته هي [1]:

قِفْ بِالدِّيَارِ وَأيُّ الدَّهْرِ لَمْ نَقِف عَلَى المَـنَازِل بَيْنَ الظهرِ وَالنَّجَف

وَمَا وُقُوْفُـكَ فِي أطْلالِ مِـنْزِلَةٍ لَوْلا الَّتِي اسْتَدْرَجَتْ مِنْ قَلْبِكَ الكَلَف

إنْ كُنْتَ أصْبَحْتَ مَشْغُوْفاً بِسَاكِنِهَا فَلا وَرَبِّـك لا تَشْـفِيْكَ مِنْ شَغَفِ

دَعْ ذَا وَقُلْ فِي الَّذِي قَدْ فَازَ مِنْ مُضَرٍ بِالمَـكْرُمَاتِ وَعِـزٍ غَـيْرُ مُقْتَرَف

كان هذا بالنسبة للقصائد التي نهج فيها أصحابها النهج القديم ، أي التي افتتحها أصحابها بالمقدمة الطللية ، ولكن هناك قصائد ليس لها مقدمة طللية أو غزلية ؛ فهي تدخل في الغرض الأساسي مباشرة ، ومن هنا ينعدم وجود التخلص من غرض لآخر ، وشواهد ذلك وافرة في الشعر العباسي ، نختار منها على سبيل المثال ما رواه ابن المعتز من كلمة لنصيب الأصغر في مدح إسحاق بن الكندي ، حيث دخل في المدح مباشرة دون تمهيد لذلك بالغزل ، أو ذكر الأطلال ، وأولها هو [2] :

كَـأنَّ بْنَ صَبَاحٍ وَكِنْدَةُ حَوْلَهُ إذَا مَـا بَدا بَدْرٌ تَوَسَّطَ أنْجُـمَا

عَلَى أنَّ فِي البَدْرِ المُحَاقِ وَإنَّه تَمَامٌ فَمَـا يَزْدَادُ إلا تَتَمُمَـا... إلخ

ولعل من أبرز ما يلاحظ على القصيدة العربية في العصر العباسي ، أنها عند كثير من الشعراء أصبحت تتسم بالوحدة الموضوعية ؛ حيث استطاع الشاعر العباسي أن يؤلف بين أجزاء قصيدته بانفعال نفسي موحد يصبغها بصبغة واحدة هي

[1] - الأغاني ، جـ: 18، ص: 151.
[2] - طبقات ابن المعتز ، ص: 155.

الحالة النفسية أو الشعورية للشاعر ، ومرجع هذا إلى أن الشاعر العباسي قد أحسن في كثير من أعماله الشعرية التخلص ، والخروج ، والتنقل بين أفكار قصيدته بدقة ، وإحكام ، نلاحظ ذلك مثلاً عند المتنبي الذي قال عنه ابن رشيق : (وأكثر الناس استعمالاً لهذا الفن أبو الطيب ، فإنه ما يكاد يفلت له ، ولا يشذ عنه ، حتى ربما قبح سقوطه فيه) [1]، فالفن الذي عناه ابن رشيق هنا هو حُسْنُ التخلّص ، والناظر في قصيدة المتنبي الدالية التي مطلعها :

عِيْدٌ بِأيِّ حَالٍ عُدْتَ يَا عِيْدُ بِمَا مَضَى أمْ بِأمْرٍ فِيْكَ تَجْدِيْدُ [2]

الناظر إلى هذه القصيدة يلاحظ مدى عناية الشاعر ، واهتمامه فيها بترابط الأفكار ، وتسلسلها المنطقي دون اضطراب ، وهذا راجع إلى حسن صنعته في التخلص ، والخروج من فكرة لأخرى ، ونجد القاضي الجرجاني في الوساطة يورد مجموعة من المواضع التي أحسن فيها المتنبي الخروج ، والتخلص في كثير من قصائده منها على سبيل المثال [3]:

وَحُبِيْتُ مِنْ خُوصِ الرِّكَابِ بِأسْوَدٍ مِنْ دَارِشٍ فَغَدُوْتُ أمْشِي رَاكِبَا

حَالاً مَتَى عَلِم بْنُ مَنْصُورٍ بِهَا جَاءَ الزَّمَانُ إلَيَّ مِنْهَا تَائبَا

كما يأتي القاضي الجرجاني بعد ذلك بأمثلة لما وصفه بالمستكره من تخلص المتنبي مثل قوله [4]:

أعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنَى سَرْجُ سَابِحٍ وَخَيْرُ جَلِيْسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

وبَحْرٌ أبُوْ الْمِسْكِ الخِضَمُّ الَّذِي لَهُ عَلَى كُلِّ بَحْرٍ زَخْرَةٌ وَعُبَابُ

ثم يُتبع القاضي الجرجاني هذه الأبيات بقوله : (فهي وإن لم تكن حسنة ، فليست من المستهجن الساقط) [5].

وكما وجدنا عند القاضي الجرجاني إشارة إلى ما جاء به المتنبي من تخلصات ، كان بعضها جيداً ، وبعضها الآخر غير مستحسن ، نجد كذلك من يصف شعر البحتري بأنه يفتقر إلى حسن التخلص ، وخاصة من النسيب إلى المديح ، فقد كانت

---

[1] ـ العمدة ، جـ:1، ص: 234.
[2] ـ شرح ديوانه ، ص : 194 .
[3] ـ الوساطة ، ص: 152.
[4] ـ السابق ، ص: 155 .
[5] ـ السابق الصفحة نفسها .

الروابط بين الغرضين مبتوتة ، قال صاحب المثل السائر :(إنه لم يوفق في التخلص من الغزل إلى المديح بل اقتضبه اقتضاباً) [1]، كما قال عنه الباقلاني : اتفق أهل الصناعة على تقصير البحتري في الخروج من غرض لآخر ، مع جودة شعره ، وخاصة عند خروجه من النسيب إلى المديح[2].

وسآتي هنا بمثال على صنيع البحتري في تنقله من غرض لآخر في إحدى قصائده ، فقد مدح المتوكل ، وهنأه بعيد الفطر بقصيدة افتتحها بمطلع غزلي من تسعة أبيات كان أولها :

أَخْفِي هَوًى لَكِ فِي الضُّلُوْعِ وَأضْمِر وَألامُ فِي كَمَدٍ عَلَيْكِ وَأعْذَر

وكان آخر أبيات مقدمته الغزلية البيتين التاليين :

إنِّي وَإنْ جَانَبْتُ بَعْضَ بَطَالَتِي وَتَوَهَّمَ الوَاشُوْنَ أنِّي مُقَصِّر

لَيَشُوْقَني سِحْرُ العُيُوْنِ المُجْتَلَى وَيَرُوقَنِي وَرْدُ الخُدُوْدِ الأحْمَرُ

ثم يأتي بعدها إلى المديح مباشرة دون أي تمهيد ، أو حسن تخلص ، - وفي هذا إثبات لما قاله بعض العلماء من تقصير البحتري في باب التخلص والتنقل بين فقرات قصائده - وذلك في قوله :

اللهُ مَكَّنَ لِلْخَلِيْفَةِ جَعْفَر مُلْكاً يُحَسِّنُهُ الخَلِيْفَةُ جَعْفَر...إلخ[3] .

وبما أن هناك تطوراً أصاب بناء القصيدة العربية في العصر العباسي من حيث مخالفتها لعمود الشعر أو موافقتها له ، فإن الغالب على القصيدة العباسية أنها خالفت نظام عمود الشعر المتعارف عليه عند الشاعر القديم ، وقد تحولت هذه القصيدة في بنائها أيضاً من نظام القصيدة المطولة - التي قد تضم أكثر من غرض - إلى نظام آخر أكثر خفة ؛ وهو نظام المقطوعة الشعرية التي تحوي غرضاً واحداً بعينه يستغرق هذه المقطوعة من أولها إلى آخرها ، ومن هنا لم يعد الشاعر بحاجة إلى التخلص من فكرة لأخرى داخل هذه المقطوعة ، كان هذا في أغلب الشعر العباسي الذي سادت فيه وحدة الموضوع ، غير أن من الشعر العباسي ما كان ناظمه بحاجة

1 ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ص : 136
2 ـ انظر تطور الشعر في بلاد الشام في القرنين الثاني والثالث ، ص: 208. نقلاً عن إعجاز القرآن ، ص: 56.
3 ـ ديوانه ، ص: 1070 ، والأبيات السابقة كذلك من الصفحة نفسها من الديوان .

إلى استخدام التخلص من غرض لآخر ، وخاصة في شعر المدح – الذي هو أوسع أبواب الشعر العباسي - حيث حاول الشاعر العباسي أن يُبقي فيه على أكثر التقاليد التي تعارف عليها القدامى في القصيدة المدحية ، ودليل ذلك ما جئت به من أقوال لبعض العلماء الذين علّقوا على بعض ما قام به البحتري ، والمتنبي من تخلص ، وتنقل بين أغراض القصيدة الواحدة .

3 ـ الغرض الشعري

بعد أن تحدثت عن المطلع والمقدمة ، والتخلص من غرض لآخر ، بقي أن أشير هنا إلى الغرض الشعري .

فقد سبق الحديث في فصل سابق من هذه الدراسة عن الأغراض الشعرية في العصر العباسي ، وما صاحب هذه الأغراض من تطوير وتجديد ، وقد لاحظنا أن تجديد الشعراء العباسيين في الموضوعات الشعرية قد انقسم إلى قسمين : قسم قاموا فيه بالتجديد في الموضوعات الموروثة مثل المدح ، والوصف ، والغزل ، وقسم آخر استحدث فيه الشاعر العباسي بعض الموضوعات ، التي لم يسبق للشاعر العربي قبل هذا العصر أن نظم فيها ، وإنما قام الشاعر العباسي باختراعها ، والتوسع في تناولها ، مثل الشعر التعليمي ، والخلقي وشعر الزهد ، وشعر المجون بأنواعه .

كان حال الشعر في العصور السابقة للعصر العباسي يسير على النهج التقليدي المعروف بعمود الشعر العربي ، الذي أوضحه المرزوقي فيما بعد ، وأشار إليه ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء [1] ، أما في العصر العباسي فقد تداخلت عوامل عديدة وتضافرت إلى أن وجهت الشعر وجهة أخرى لم تعهد عند الشاعر القديم ، حيث اختلط العرب في العصر العباسي بغيرهم من الأمم ؛ فنشأت طبقة مولدة من الشعراء كان أغلبها من الموالي - أي من غير العرب - ؛ فكان ضرورياً أن تتغير ملامح بنية القصيدة العربية كلية ، كما لاحظنا ذلك عند حديثنا عن المطلع والمقدمة والتخلص .

ومثلما ألحق التجديد بهذه العناصر فقد لحق كذلك بالغرض الشعري ، حيث تحرر الشاعر العباسي في كثير من قصائده ومقطوعاته من قيود القديم ورأى ضرورة الصدور عن روح العصر والابتعاد عن التقاليد الموروثة .

وقد نتج عن التجديد الذي جاء على أيدي شعراء العصر العباسي في بناء القصيدة وغرضها ، أن اتجه النقاد إلى الخصومات النقدية ، والتنافس في الدفاع عن الشعراء المحدثين وتبني أو رفض مذاهبهم .

---

[1] - انظر الشعر والشعراء ، جـ: 1 ، ص : 31 .

فالموضوعات الشعرية في العصر العباسي كانت في عمومها جديدة بعيدة عن الإطار الشعري الموروث ، كما عرضت في فصل سابق ، وتناول هذه الأغراض وما أصابها من تطور مرة أخرى سيكون تكراراً .

خاتمة البحث

حاولت هذه الدراسة أن تقدم صورة عن تراث العرب الأدبي في عصر من أرقى العصور الإسلامية ثقافياً ، وأدبياً ، وأكثرها إنتاجاً للشعر ، وهي حقبة الحكم

العباسي ، هذا العصر الذي وإن كثرت الدراسات حوله ؛ فالحاجة ما تزال قائمة فيه للمزيد من الدراسات التي تكشف قدرة شعرائه ، وتوضح بديع إنتاجهم.

من هنا كان هدف هذه الدراسة الرئيسي ، هو توضيح أهم ملامح الحداثة ، والتطور التي طرأت على القصيدة العربية في العصر العباسي .

ومسألة التطور ، والتجديد ، والتكيف مع ظروف العصر السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، تعد من سنن الحياة في كل عصر ، وخاصة إذا ما توفر المناخ المناسب لكل ذلك ؛ وهذا ما حدث بالفعل مع القصيدة العربية في العصر العباسي ، الذي شهد نقلة نوعية طالت كل مناحي الحياة . فهمُّ هذه الدراسة إذاً هو السعي إلى الوقوف على أشكال التطور والتجديد الذي طرأ على القصيدة الشعرية في العصر العباسي .

ومن هنا فقد جاء الفصل الأول من هذه الدراسة تمهيداً تناول مظاهر الحياة العامة ، وما صاحبها من تغير على الصعيد السياسي ، والاجتماعي ، والعقلي الثقافي ، حيث أوضحت من الجانب السياسي كيف أن سياسة الأمويين عملت على تأليب الناس ضدها ، وخاصة فئة الموالي التي قاست ألواناً من الذل ، والميز الجنسي ، مما دفعهم إلى العمل في الخفاء مع الحزب العباسي للإطاحة بالأمويين ، وهذا ما تحقق لهم فعلاً ، وكانت بعدهم دولة بني العباس الذين رجحوا كفة الموالي على العرب ، الأمر الذي أمدَّ التيار الشعوبي بكل أسباب القوة فراح دعاته يعملون جهاراً ، ودون رادع .

ومن ناحية الجانب الاقتصادي فقد عملت على توضيح اختلاط العرب بغيرهم من القوميات ، والبيئات الأجنبية التي أثّرت تأثيراً مباشراً على نظام حياة العرب الذي كان بسيطاً ، وخالياً من التعقيد ، وقد اتضح أنه كان للعامل الاقتصادي دوره في تكوين هذه البيئة المستحدثة مع توفر الأموال ، وسيطرة طبقات بعينها على مقدرات طبقات أخرى بسيطة كادحة .

وعرضت في الجانب الثقافي والعقلي من هذا الفصل إلى أثر الحضارات الوافدة على المجتمع العربي ، فمن الثقافة الفارسية إلى اليونانية إلى الثقافة الهندية

، وقد تعامل العرب مع هذه الثقافات من جانبين ، جانب المخالطة المباشرة ، والاحتكاك ، وجانب آخر هو عن طريق الترجمة ؛ وقد كان فعل الاحتكاك الاجتماعي أبرز من دور الترجمة ، يُضاف إلى هذا الجانب الثقافة الإسلامية التي تمازجت مع تلك الثقافات الوافدة .

وقد خُصص الفصل الثاني من هذه الدراسة وهو المعنون بقضايا عامة لتناول ثلاث من القضايا التي شغلت النقاد ، والشعراء ، ومتتبعي الأدب ، أولها كانت قضية الصراع بين القدم والحداثة ، وقد أوضحت أن أنصار القديم كانوا من العلماء المهتمين بجمع اللغة ، وتفسير القرآن الكريم ، والذين كان همهم الأول هو المحافظة على عمود الشعر العربي ؛ أما دعاة التجديد فإنهم شعراء رأوا أنه من الزيف أن يحيوا حياة كلها حضارة ، وترف مادي ، وعقلي ، ثم يتمسكوا في شعرهم بتقاليد لا تمت إلى هذه الحياة بأي صلة ، ثم إن أصحاب الموقف المتشدد المحافظ تحولت نزعتهم تلك إلى عصبية قائمة على أسس زمنية بعيدة عن النظرة الفنية الصائبة .

وكانت القضية الثانية قضية الثورة على الموروث ، وقد جئت بالثورة على المقدمة الطللية كنموذج لها ، هذه الثورة التي وجدت أن أبا نواس أكثر من هتفوا بها ، وأن هذه الدعوة في عمومها كانت لا تخلو من شبهة الشعوبية ، وإن كانت لها أمثلة عند شعراء عرب الأصل مثل ابن المعتز ، وقد كان مصير هذه الدعوة هو الفشل لأن رائدها نفسه ، وهو أبو نواس لم يفلت من النظام التقليدي للقصيدة المدحية في كثير من شعره ، حيث افتتح كثيراً من قصائده بالمقدمة الطللية ، وقد كان للخلفاء ، والأمراء دور بارز في استمرار المقدمة الطللية في الشعر العباسي ، لأن ذلك بالنسبة لهم نوع من الترف الفني ، كما أنهم كانوا يحبذون من ممتدحيهم الرجوع بهذه المدائح إلى النسخة العربية الأصيلة التي رأوها في أشعار الفحول من شعراء الجاهلية الأوائل ، هذا مع العلم بأن أكثر هؤلاء الخلفاء كانوا على علم ودراية - لا بأس بهما - بأساليب الشعر ونقده .

وأتبعت القضيتان السابقتان بثالثة ، وهي مسألة الصراعات الفكرية ، والمذاهب الدينية ، في القصيدة العباسية الأمر الذي لم يُعهد بكثرة في العصر السابق ، فمن الحزب الأموي إلى الحزب العباسي ودعاته ، إلى العلويين ، إلى فرق ونحل دينية أخرى ، مثل المعتزلة ، والشيعة ، وتيار آخر هو التيار الشعوبي ، فكل هذه الفرق والمذاهب وجدت في الشعر العباسي ، وقد تقسم الشعراء العباسيون بين هذه الفرق والمذاهب ، وأخذ كلٌّ منهم يدعو لما يراه لصالحه ؛ الأمر الذي أدّى إلى اتساع هذا النوع من الشعر السياسي ، والديني في العصر العباسي .

أما في الفصل الثالث فقد ألقيت الضوء على أهم ملامح التطور ، والتجديد في القصيدة العباسية ، وقد تناولت ذلك من جانبين : جانب الموضوعات أو الأغراض ، وجانب الشكل الذي يحتوي الأسلوب ، والأوزان ، والصورة الشعرية .

ففيما يتعلق بالغرض الشعري والتجديد فيه ، فقد خلصت الدراسة إلى أن هناك تجديداً في الغرض الشعري ، وقد انقسم عمل الشاعر العباسي فيه إلى نمطين ، قام في الأول منهما بالتجديد في إطار بعض الموضوعات القديمة ، كتجديده في القصيدة المدحية ، وقصيدة الغزل ، والرثاء ، والهجاء ، كما جدد الشاعر العباسي في شعر الوصف ، إذ عمد إلى وصف الطبيعة الزاهرة ، ووصف أكثر مظاهر الحضارة ، والرقي في عصره مثل القصور ، والجسور والسفن ، والبرك ، وأصناف الأطعمة التي راجت في عصرهم ، كما اتجه آخرون إلى وصف أدوات الفكر والكتابة مثل الأقلام والكتب .

وقد طال هذا التطور قصيدة الخمر ، التي حمل لواء التجديد فيها أبو نواس الذي نادى بأن تحل المقدمة الخمرية محل المقدمة الطللية ، كما استفرغ أبو نواس كل صفات الخمر وما تعلق بها من السقاة ، والباعة ، والندمان ، والكؤوس وما زينت به من تصاوير لأجناد الفرس ، وتطرق النواسي أيضاً في خمرياته لعملية تعتيق الخمر ، وتغنى بالبلاد التي فضل أن تجتلب هذه الخمر منها وهي بلاد فارس ، ومما وقفت عنده هذه الدراسة من التجديد في قصيدة الخمر وغيرها مثل

قصيدة وصف الطبيعة ؛ أن هذه الأغراض أخذت تنحو نحو الاستقلال في قصائد ومقطوعات اقتصرت على غرض واحد سواء في صفة الخمر ، أو في صفة الطبيعة ، على خلاف ما كانت عليه قبل هذا العصر بأن تتداخل الموضوعات في القصيدة الواحدة .

وشعر الطرد أيضاً حدث معه الأمر نفسه حيث جدد فيه الشاعر العباسي ، بأن جعل القصيدة الطردية مسرحاً ، جُسدت عليه رحلة الصيد ، وما صاحبها من مجالس لهو ، وشرب ، وأكل ، كما وصفوا في طردياتهم جميع الحيوانات الصائدة إضافة إلى الفرائس ، واتجه بعضهم إلى افتتاح الطردية بفخره بالنفس ؛ كفعل المتنبي في بعض طردياته ، وقد مزج المتنبي أيضاً بين المدح والطرد بأن جعل الممدوح هو الذي يصطاد الفرائس مباشرة دون استخدام الكلاب أو الفهود أو البزاة . كان هذا النوع الأول من التجديد الذي طرأ على الغرض الشعري الموروث .

أما النوع الآخر فهو ما قام فيه الشاعر العباسي باستحداث وابتداع أغراض جديدة لم يسبق للشاعر العربي أن نظم فيها ، وهي أغراض دعت إلى اختراعها ظروف العصر ومعطياته المتباينة ، وقد كان الشعر التعليمي من أبرز هذه الأغراض المستحدثة والطارئة على الشعر العباسي ، كان باعثه الأول لجوء الناس في هذا العصر إلى تعليم أبنائهم العلوم التي شاعت في هذا العصر ، وهي رواية الشعر ، وعلوم اللغة ، والعلوم الدينية ، وعلوم الأوائل مما ترجم عن اليونان ، فمن هنا ارتأى الشاعر العباسي تسهيل فهم وحفظ وتدارس هذه العلوم على المتعلمين بأن نظمها شعراً ، وقد جاء أكثر هذا الشعر على بحر الرجز ، هذا البحر الذي أثبت أنه أكثر البحور الشعرية قدرة على استيعاب مختلف العلوم التي كان الناس بصدد دراستها في هذا العصر .

ومن ابتداعات الشاعر العباسي تناولت هذه الدراسة شعر المجون ، وخاصة الغزل الشاذ منه - الغزل بالمذكر - ، الذي اتضح أنه ظهر نتيجة تأثيرات أجنبية ،

ولم يُعهد عن العرب الأوائل أن تعاطوا مثل هذا النوع من الشعر الشاذ ، ولا جاءت به عنهم الروايات والأخبار .

وقد استدعى استفحال أمر الشعر الماجن أن يظهر تيار شعري آخر مضاد ، وهو تيار الشعر الزهدي ، كما أن كثرة دعاة الخير والصلاح شجعت كثرة من شعراء هذا العصر على أن ينظموا فيه لتوعية الناس ، وانتشالهم من رذائل التيار الماجن وشروره ، كما أن من أسباب اتساع دائرة هذا التيار لجوء الطبقات المضطهدة من ظلم المجتمع وصخبه إلى الله والإنابة إليه .

أما المبحث الثاني من هذا الفصل فقد اشتمل على الجوانب الشكلية في القصيدة العباسية ، وما طرأ عليها من تجديد وتطوير ، وهذه الجوانب هي الأسلوب الشعري ، والأوزان ، والصورة الشعرية ، أما الأسلوب فقد أطلق عليه اسم الأسلوب المحدث أو المولد ، لما كان لهُ من مميزات وسمات عصرية ، لم تُعهد على أسلوب الشعر العربي القديم ، فكانت أهم مميزات الأسلوب المحدث أن لجأ الشاعر العباسي فيه إلى الشعبية ، وإدخال الكثير من الألفاظ اليومية لعامة الناس كما أدخل الشاعر العباسي في شعره الكثير من ألألفاظ الأجنبية ، واقترنت هذه السمات بالميل إلى النثرية ، والتفنن أيضاً في استخدام الصنعة البديعية إلى درجة أصبحت فيها هذه الصنعة مقصودة لذاتها .

ومن الجوانب الشكلية في القصيدة العباسية تطرقت الدراسة أيضاً إلى الأوزان الشعرية وأثر حركة الغناء فيها ، فهذه الأوزان التي وإن كانت وفيرة ومتنوعة قبل هذا العصر ؛ إلا أنه كان للشاعر العباسي تعامله الخاص معها استجابة لعوامل كثيرة دعت إلى التطوير في هذه الأوزان ، وقد كان على رأس هذه العوامل اتساع دائرة الغناء ، وانشغال كافة الناس به لدرجة أن معظم الشعر أصبح ينظم ليغنى به ، من هنا قام الشاعر العباسي بإحياء بعض الأوزان التي كانت مهملة قبل هذا العصر ، كما كثر نظمهم على الأوزان القصيرة والرشيقة ، وتجزئة الأوزان الطويلة ، وقد ألحق هذا التطور على صعيد الأوزان بأن تحلل

الشاعر العباسي من النظام الموحد للقافية في القصيدة الواحدة ، وذلك بأن نظم في المزدوجات ، والمسمطات ، والمخمسات ، والرباعيات .

يُضاف إلى هذين الجانبين من الجوانب الشكلية للقصيدة العباسية جانب آخر هو الصورة الشعرية ، التي أفرط الشاعر العباسي في نقلها من استخدام الاستعارة ، والكناية ، والجناس ، والطباق ، كما عمد بعضهم أيضاً إلى التجسيم والتشخيص للمعنويات .

ثم نأتي للفصل الرابع الذي كان عنوانه البنية الهيكلية للقصيدة في هذا العصر ، وقد قسم هذا الفصل إلى مبحثين تناولت في أولهما إطار القصيدة ، وقد كانت أطر القصيد في هذا العصر متعددة منها القصائد ، والمقطوعات ، والرجز ، وأطر أخرى كالمسمط ، والمزدوج ، ومما أوضحته هذه الدراسة في هذا الفصل ، أن نظام القصيدة أخذ يتراجع وأخذ يطغى عليه نظام المقطوعة الشعرية ، لأن غالبية شعر هذا العصر نظم ليُغنى به ، وأن طبيعة العصر وحياة الناس لم تعد تسمح بالإطالة في القصائد ، إلا إذا كانت قصيدة من الشعر الرسمي كالمدح أو التهنئة ، أما عن الرجز فقد كثر النظم عليه وخاصة في الشعر التعليمي أو الأخلاقي ، وشعر الطرد كذلك .

وقد تحدثت في المبحث الثاني من هذا الفصل عن عناصر بنية القصيدة وهي المقدمة والمطلع ، ثم التخلص ، ثم الغرض ، فقد كان الشاعر القديم عادة ما يفتتح قصيدته بالمقدمة الطللية أو بالغزل والنسيب ، أما في هذا العصر فقد دعا بعض الشعراء إلى الثورة على مثل هذه المقدمات ، وطرحوا بدائل عنها منها المقدمة الخمرية ، كما جاء شعراء آخرون بمقدمات أخرى كوصف الطبيعة ، ومنهم من دخل في غرضه مباشرة دون تقديم لذلك ، وآخرون عمدوا إلى المقدمة الحكمية الوعظية كما أن بعض القصائد قدم لها بمناسبتها ، وعلى الرغم من كل هذا فإن المقدمة الطللية لم تندثر أو تختفي في أشعار هذه الفترة ، وبالأخص في قصيدة المدح ، وإن لوحظ أن الشاعر العباسي قد تخفف في كثير من قصائده من أصول المقدمة الطللية .

وكان التخلص من موضوع لآخر أو من فكرة لأخرى في القصيدة العربية من أبرز العناصر التي عني بها النقاد ، ودعوا الشعراء إلى الإحسان فيها في العصور السابقة لهذا العصر ، وكان الأمر كذلك في هذا العصر ؛ ففي قصيدة المدح نلاحظ أن الشاعر العباسي أصبح أكثر سلاسة في التنقل بين أفكاره دون أن يُشعر القارئ أو المستمع أن هناك تنقلاً قد حدث بالفعل ، ولم يكن هذا حال كل الشعراء العباسيين ، لأن منهم من عقّب العلماء على تخلصه في بعض قصائده بأنه لم يُحسن التصرف في هذا التخلص .

وآخر عناصر بناء القصيدة في هذا المبحث كان الغرض أو الموضوع الشعري ، وبما أن هذا العنصر سبق التطرق إليه في الفصل السابق ، فقد اكتفيت في هذا الموضع بالإشارة إلى ذلك تجنباً للتكرار .

أخيراً فإن أهم ما سجلته هذه الدراسة من نتائج ، كان التأكيد على أن هناك تجديداً أصاب القصيدة العربية في هذا العصر ، وأن هذا التجديد كان شاملاً للجانبين الشكلي والموضوعي ، وأن دواعي ذلك التجديد كانت متشابكة سياسية ، واجتماعية ، واقتصادية .

كما أن هذه الدراسة عرّفت بأغراض الشعر القديمة التي طرأ عليها بعض التجديد في الشعر العباسي ، وتعرضت كذلك للأغراض الشعرية المستحدثة . وكذلك فهذه الدراسة في أغلب فصولها تعد بمثابة المقارنة بين شكلي القصيدة العربية ، الشكل التقليدي الموروث ، والشكل المولد المحدث ، يتضح ذلك من خوضها في قضايا مثل قضية الصراع بين القديم المحدث ، وقضية الثورة على المقدمة الطللية .

وبعد فإن هذه الدراسة تتبعت شعراء عاشوا في فترة تزيد على الثلاثة قرون من الزمان ؛ فكان الغالب على منهجها هو استشفاف الروح العامة التي اتسمت بها أعمال هؤلاء الشعراء في هذه الفترة .

ثبت بالمصادر والمراجع

1 . القرآن الكريم ، برواية قالون عن نافع المدني ، والرسم العثماني على ما اختاره الحافظ أبو عمرو الداني ، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية . ط : 1 ، 1986 .

2 . أبو نواس الحسن بن هاني ، عباس محمود العقاد ، الأنجلو المصرية القاهرة ، ط : 1 ، 1957 .

3 . ابن المعتز العباسي صورة لعصره ، سعد شلبي ، دار الفكر العربي ، ط :1 ، 1981 .

4 . اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، محمد مصطفى هدَّارة ، دار العلوم العربية ، بيروت لبنان ، ط:1 ، .1988

5 ـ اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري من خلال كتاب يتيمة الدهر للثعالبي ، نبيل خليل أبو حلتم ، دار الثقافة الدوحة ، ط:1 ، 1985 .

6 . اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، يوسف حسين بكار ، دار الأندلس ، ط : 2 ، 1981 .

7 . أخبار أبي تمام للصولي ، تحقيق خليل عساكر ، القاهرة ، ط:1، 1937 .

8 . الأدب العربي في الجاهلية والإسلام ، عمر رضا كحالة ، المطبعة التعاونية دمشق ، د ط ، 1972 .

9 . الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي – الجزء الثاني– محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل بيروت ، ط:1 ، 1990 .

10 . الأدب في عصر العباسيين – الجزء الأول والثاني – محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف الإسكندرية ، ط: 1، .1993

11 . أشكال الصراع في القصيدة العباسية ، عبد الله التطاوي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط : 1 ، 1996 .

12 . الأعلام ، خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين بيروت لبنان ، ط:6، 1984.

13 . الأغاني ، لأبي الفرج الأصفهاني ، طبع دار الكتب المصرية القاهرة ، د ط ، 1932 .

14 . الأوراق للصولي قسم أخبار الشعراء ، عني بنشره : هيورث دن ، دار المسيرة بيروت ، ط : 2 ، 1982 .

15 . البديع ، عبد الله بن المعتز ، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ، القاهرة ، ط :1 ، 1945 .

16 . البلاغة تطور وتاريخ ، شوقي ضيف ، دار المعارف مصر ، ط : 12 ، د ت .
17 . البيان والتبيين ، عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق: حسن السندوبي ، الدار التجارية مصر ، د ط ، 1962 .
18 . تاج العروس ، للزبيدي ، تحقيق : عبد الستار أحمد فراج ، نشر وزارة الأرشاد والأنباء الكويت ، د ط ، د ت .
19 . تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي في العصر العباسي الثاني ، – الجزء الأول – إبراهيم حسن ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، د ط ، د ت .
20 . تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني ، إبراهيم علي أبو الخشب ، دار الفكر العربي مصر ، د ط ، د ت .
21 . تاريخ الأدب العربي ، بلاشير ، ترجمة : إبراهيم الكيلاني . نشر وزارة الثقافة دمشق ، د ط ، 1973 .
22 . تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان ، ترجمة : عبد الحليم النجار ، القاهرة ، ط : 2 ، 1959 .
23 . تاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، نجيب محمد البهبيتي ، دار الفكر العربي ، ط : 4 ، د ت .
24 . التطور والتجديد في الشعر الأموي ، شوقي ضيف ، الأنجلو المصرية ، ط : 2 ، 1965 .
25. تطور الخمريات في الشعر العربي ، جميل سعيد ، مطبعة الاعتماد المصرية ، ط :1 ، 1945 .
26 . تطور الشعر في بلاد الشام في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، عبد الرحمن عطبة ، منشورات جامعة الفاتح طرابلس الغرب ، ط : 1 ، 1978.
27 . التقليد والتجديد في الشعر العباسي ، صلاح مصيلحي عبد الله ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ، ط : 1 ، 1991 .

28 . التيارات الأجنبية في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، عثمان موافي البناني ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ، ط : 1 ، 1992.
29 ـ الجامع في تاريخ الأدب العربي – الجزء الأول – ، حنا الفاخوري ، دار الجيل بيروت ، ط : 1 ، د ت .
30 . حديث الأربعاء – الجزء الثاني – ، طه حسين ، دار المعارف الإسكندرية ، ط : 15 ، د ت .
31 . الحياة الأدبية في البصرة حتى نهاية القرن الثاني الهجري ، أحمد كمال زكي ، دار المعارف مصر ، ط : 1 ، د ت .
32 . الحيوان ، عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق: عبد السلام هارون ، القاهرة ، د ط ، د ت .
33 . ديوان البحتري ، شرح وتحقيق : حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف مصر ، ط : 1 ، 1963 .
34 ـ ديوان بشار بن برد ، تحقيق : محمد الطاهر بن عاشور ، نشر الشركة التونسية للتوزيع ، ط : 1 ، 1976 .
35 ـ ديوان ديك الجن ، تحقيق : أحمد مطلوب وعبد الله الجبوري ، دار الثقافة بيروت ، ط : 1 ، 1964 .
36 . ديوان ابن الرومي ، تحقيق: حسين نصار ، دار الكتب المصرية القاهرة ، ط : 1 ، 1973 .
37 . ديوان أبي العتاهية أشعاره وأخباره ، تحقيق : شكري فيصل ، جامعة دمشق ، 1965 .
38 . ديوان أبي الفتح البستي ، مطبعة جمعية الفنون بيروت ، ط : 1 ، د ت 39 . ديوان المتنبي ، تحقيق : عبد الرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي بيروت لبنان ، د ط ، د ت .
40 . ديوان ابن المعتز ، شرح : يوسف شكري فرحات ، دار الجيل بيروت لبنان ، ط : 1 ، 1995 .

41 . ديوان مهيار الديلمي ، تحقيق : أحمد نسيم ، دار الكتب المصرية القاهرة ، ط : 1 ، 1931 .
42 ـ ديوان أبي نواس الحسن بن هاني ، تحقيق: أحمد عبد المجيد الغزالي ، دار الكتاب العربي بيروت ، ط : 1 ، .1953
43 ـ رثاء غير الإنسان في الشعر العباسي ، عبد الله عبد الرحيم السوداني ، المجمع الثقافي أبو ظبي ، ط : 1 ، 1991 .
44 . شرح ديوان صريع الغواني مسلم بن الوليد الأنصاري ، شرح سامي الدهان ، دار المعارف مصر ، ط:2، 1970 .
45 . شرح ديوان المتنبي ، نخبة من الأدباء ، دار الحياة بيروت لبنان ، 1968.
46 . شرح القصائد العشر ، الخطيب التبريزي ، المكتبة الأزهرية للتراث القاهرة ، د ط ، د ت .
47 . الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، تحقيق: أحمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ، د ط ، .1966
48 ـ الصورة الفنية في الشعر العربي مثال ونقد ، إبراهيم عبد الرحمن ، الشركة العربية للنشر والتوزيع القاهرة ط : 1 د ت .
49 ـ ضحى الإسلام ، أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، ط : 7 ، 1964 .
50 . طبقات الشعراء المحدثين ، عبد الله بن المعتز ، تحقيق: عبد الستار فراج ، دار المعارف مصر ، ط : 2 ، 1962 .
51 ـ العصر العباسي الأول ، شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، ط: 17، 1966 .
52 . العصر العباسي الثاني ، شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، ط: 12، 1973.
53 ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ابن رشيق القيرواني ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل بيروت ، د ط ، د ت .

54 . عيار الشعر ، ابن طباطبا العلوي ، تحقيق: عبد العزيز ناصر المانع ، دار العلوم الرياض ، د ط ، 1985 .
55 ـ الغزل في العصر الجاهلي ، أحمد محمد الحوفي ، دار النهضة العربية القاهرة ، ط : 2 ، 1961 .
56 . فجر الإسلام ، أحمد أمين ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ، ط : 1 ، .1934
57 . فن الرجز في العصر العباسي ، رجاء الجوهري ، منشأة المعارف الإسكندرية ، ط : 1 ، د ت .
58 . الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، شوقي ضيف ، دار المعارف مصر ، ط : 13 ، 1960 .
59 . في الأدب العباسي الرؤية والفن ، عز الدين إسماعيل ، دار النهضة العربية بيروت لبنان ، ط :1 ، د ت .
60 . القصيدة العباسية قضايا واتجاهات ، عبد الله التطاوي ، الأنجلو المصرية ، د ط ، د ت .
61 ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين بن الأثير ، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة ، القاهرة ، ط : 1 ، 1959.
62 ـ مرجعية الشعر العباسي بين الخبر والنص ، عبد الله التطاوي ، الدار المصرية اللبنانية ، ط :1 ، 2006 .
63 . موسيقى الشعر العربي ، إبراهيم أنيس ، الأنجلو المصرية ، ط : 2 ، 1965 .
64 ـ الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، للمرزباني ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار نهضة مصر ، د ط ، 1965 .
65 . مع المتنبي ، طه حسين ، دار المعارف مصر ، ط:2، د ت .
66 ـ من حديث الشعر والنثر ، طه حسين ، دار المعارف مصر ، ط : 12، د ت .

67 ـ الموازنة بين أبي تمام والبحتري ، لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، دار المعارف مصر ، د ط ، 1961 .
68 . نفسية أبي نواس ، محمد النويهي ، دار النهضة المصرية ، ط :1، 1953 .
69 . النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري ، نعمة رحيم العزاوي ، منشورات وزارة الثقافة والفنون العراق ، د ط ، د ت .
70 ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه ، للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، ط : 1 ، 1951 .
71 ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، لأبي منصور الثعالبي ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ط : 2 ، 1956 .

فهرس المحتويات

ر.م	الموضوع	رقم الصفحة
1	الآية القرآنية	
2	الإهداء	
3	شكر وعرفان	
4	المقدمة	
5	الفصل الأول البيئة والمؤثرات	1 – 31

6	المبحث الأول الحياة السياسية	1
7	المبحث الثاني الحياة الاجتماعية	9
8	الاختلاط بالثقافات والأجناس الوافدة	9
9	حياة الترف والمدنية	15
10	المبحث الثالث الحياة العقلية	20
11	الفصل الثاني قضايا عامة	11- 63
12	تقديم	33
13	المبحث الأول القدم والحداثة	35
14	المبحث الثاني الثورة على الموروث (الأطلال نموذجاً)	42
15	المبحث الثالث الصراعات الفكرية والمذاهب الدينية	50
16	مقدمة	50
17	الحركة الشعوبية	51
18	الشيعة	55
19	المعتزلة	58
20	شعراء الدولة العباسية	61
21	الفصل الثالث تجليات الحداثة في القصيدة العباسية	64 – 115
22	المبحث الأول الاتجاهات الموضوعية (الأغراض)	64
23	التجديد في الأغراض	65
24	الشعر التعليمي	72
25	شعر الوصف	76
26	وصف الطبيعة	77
27	وصف مظاهر الحضارة	80
28	شعر الطرد	83
29	شعر الخمر	87
30	شعر المجون	91
31	شعر الزهد	94

32	المبحث الثاني الاتجاهات الشكلية	97
33	الأسلوب الشعري	98
34	الأوزان وأثر الغناء فيها	104
35	الصورة الشعرية	109
36	الفصل الرابع البنية الهيكلية للقصيدة	116- 142
37	المبحث الأول إطار القصيدة	117
38	مقدمة	117
39	القصائد والمقطوعات الشعرية	119
40	الرجز والمزدوجات	122
41	أطرٌ أخرى للقصيدة العباسية	126
42	المبحث الثاني عناصر بنية القصيدة العباسية	129
43	المطلع والمقدمة	130
44	التخلص	136
45	الغرض الشعري	141
46	خاتمة البحث	143
47	ثبت بالمصادر والمراجع	151
48	فهرس المحتويات	157